مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الحادية عشر / العدد السادس والأربعون / لسنـــة ١٤٤٢هـ

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العراق . النجف الأشرف

مركز الهدى للدراسات

مؤسسة فكريّةٌ تنشطُ في ميدانِ البحثِ والمساهمةِ في تطوير الفكر الإسلامي المعاصر؛ إيماناً منها بقدرة الإسلام ومدرسة أهل البيت عليهم السلام على تقديم البديل الحضاري للإنسان، وتُعنى بالدّراسات الفكريّة والسياسية والتاريخية لحوزتي النجف الأشرف وقم المقدّسة؛ رغبةً منها في ترسيخ الثوابت، والوقوف بوجه الفكر الدّخيل.

مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الحادية عشر / العدد السادس والأربعون / لسنة ١٤٤٢هـ

الهيئة الإستشارية

- السيد يوسف الحلو
  - أستاذ حوزة النجف الأشرف
- السيد جابر الموسوي
  - أستاذ في الحوزة العلمية
- الشيخ حسين السعيدي
  - أستاذ في الحوزة العلمية
- الدكتور أسامة السعيدي
  - جامعة النهرين
- الدكتور علي عبد الأمير
  - جامعة بغداد
- الدكتور سمير الأسدي
  - جامعة بابل
- الدكتور علي فياض
  - جامعة طهران

الإخراج الفني

أحمد الهاشمي

الإشراف العام

محمد صادق الهاشمي

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

التنسيق والمتابعة

محمد حميد الهاشمي

عصام الساعدي

معد الترجمة الفارسية

حسن علي مطر

هيئة التحرير

- أ. سمير العطواني
- أ. هادي بدر الكعبي
- أ. ضياء كاظم الهاشمي
- أ. عمار الولائي
- أ. حيدر آل وشاح
- أ. إبراهيم الأسدي
- أ. منى عبد الرحمن

مجلة الهدى

العدد: السادس والأربعون / السنة الحادية عشر/ ١٤٤٢هـ

الناشر: مركز الهدى للدراسات الحوزوية

المطبعة: الصنوبر

قطع الورق: ١٧ × ٢٤ سم

عدد الصفحات: ١٨٨ صفحة

التصميم والاخراج الفني: أحمد الهاشمي

سنة الطبع: ٢٠٢٠ م ـ ١٤٤٢ هـ

- البحوث الواردة في مجلة المنهج تعبّر عن رأي كاتبها.
- ترتيب البحوث خاضع لاعتبارات فنيَّة

هَوِيَّةُ المَجَلَّة:

مجلَّة [الهدى] فصلية علمية تعنى بالشـــؤون الحوزوية والمعرفة الدينيـــة، تصدرُ عن مركز الهدى للدراســـات الحوزوية، تعنى بالفكر الإســـلاميِّ المســـتنير وما يتَّصل به من المجالاتِ والتخصُّصات، في الشـــريعةِ والتأريخِ والقانونِ والفلســـفةِ وعلم الـــكلام الجديدِ والعلوم الإنسانيَّة المختلفة، مضافاً للفكري الحوزوي وتاريخ المرجعية والفكر المقاوم.

شُرُوطُ الكِتَابَة:

١. يتراوح حجمُ البحث بين (١٠ ـ ٢٥) صفحةً بحجم (A٤).
٢. ينضَّـــد البحثُ على قرصٍ مدمـــجٍ (CD)، أما التصحيحُ اللغويُّ فتتكفَّل به المجلَّة.
٣. يجب أن لا تكون البحوثُ منشورةً سابقاً، في الصحف أو الدوريات أو مواقع الإنترنت على الإطلاق، وأن يتعهَّد الكاتب بعدم نشـــره في مكانٍ آخر إلا بعد أخذ الموافقة من المركز.
٤. تخضع البحوث لتسلســـلٍ فنيٍّ في النشر، ولا يحقُّ للكتّاب الإعتراضُ على تأخير نشر المادَّة، لأنه أمرٌ تابعٌ لهيأة التحرير حصراً.
٥. تُقبل البحوثُ والدراساتُ المكتوبة بلغةٍ ثقافية مميزة، أما البحوث الضعيفةُ فتهمل ولا تعادُ إلى أصحابها.
٦. المجلَّة ليســـت ملزمةً بإرجاع الموادِّ إلى أصحابها، سواءٌ نشرت أم لم تنشر.
٧. يرفق الباحث ملخصاً مع البحث لا يزيد على نصف صفحة.
٨. تكون الهوامش متسلسلة في الصفحة نفسها لا في نهاية البحث.

المحتويات

الإمام الخامنئي دام ظله

مَصالحُ الولاياتِ المُتّحدةِ الأمريكيّة تقومُ على زَعزَعةِ استقرارِ المَنطقةِ وأَمْنِها

من عبق الذكرى السنوية لقادة النّصر ٣١

حُشود السّيادةِ والشّهادةِ رَسائلُها ونتائجُها «الواقعُ بَعدَ استشهادِ الحاج سُليمانيّ وأبو مَهديّ المُهندِس» ٣٣
السيد محمد صادق الهاشمي

مَدرَسةِ الحاج سُليمانيّ وعَقيدَتِه القِتاليّة وجُغرافيا آخِرِ الزّمان ٤١
أ . محمد صادق الحسيني

في رحاب الفكر المقاوم ٤٩

مُرتكزاتُ الحجّ الإبراهيميّ «قِراءةٌ في نَظرِ الإمامِ الخُمينيّ رحمه الله لفَريضةِ الحجّ» ٥١
السيد العلّامة محمد مهدي الموسوي

مُرتكزاتُ رُؤيةِ الإمامِ الخامنئيّ (دامَ ظلّه) للعِلم ٦٥
أ. عباس النوري

في فكر أعلام الحوزة ١٩

الخطابُ السّياسيُّ للشّهيدِ السّيد مُحمّد باقر الصّدر قدس سره ٨٩
محاضرات آية الله محمد باقر الحكيم

المَرجعيّة الدّينيّة في سامراء (إطلالةٌ تاريخيّة) ١٠٥
العلّامة الشيخ أ. د. صاحب نصّار

النّظامُ السّياسيّ عِندَ الفاضلِ السّيوريّ ١١٥
السّيد محمد رضا موسويان

مطارحات فكرية معرفية

١٣٩

١٤١ تَاريخانيَّةُ المُعطَيات القُرآنيَّة «قِراءةٌ وَتَحليل»

العلّامة السّيّد صدر الدّين القبانجي

١٧١ مَفهُوم العَدالةِ الاجتماعيَّة فِي النِّظامِ الرَّأسمَاليّ «مُناقَشاتٌ نَقديّة»

العلّامة السيد فاضل الجابري

الإمَامِ الخَامَنئِي دام ظله:

مصالح الولايات المتحدة
تقوم على زعزعة الأمن في المنطقة

في أجواء الذكرى السنويّة لنهضة أهالي قم عام ١٩٧٨ ، ألقى الإمام الخامنئي يوم الجمعة ٢٠٢١/١/٨ كلمة متلفزة مباشرة ، وفي كلمته أشار قائد الثورة الإسلاميّة إلى أنّ حضور الجمهورية الإسلاميّة في المنطقة يعزّز استقرارها ويقوّي أصدقائها عكس ما يُنتجه حضور أمريكا والدول الاستكباريّة ، مشيراً إلى أنّ أعداء إيران باتوا مجبرين بعد إسقاط الطائرة الأمريكية وضربة عين الأسد على إجراء حسابات بشأن قراراتهم العسكرية ، ثمّ أشاد الإمام الخامنئي باللقاح الإيراني الذي صنّعه الخبراء الإيرانيّون وقال أنّه مدعاة فخر واعتزاز إيران .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين ، ولا سيّما بقية الله في الأرضين .

أقدّم التحية إلى أهل قم الأعزاء والحوزة العلمية العظيمة . للأسف ، هذا هو وضع لقائنا السنوي هذا العام ، وأنا محروم رؤيةَ الوجوه المستنيرة للإخوة القمّيّين الأعزاء ، لكن هذا أيضاً واحد من صور الحياة ، ولها تقلّبات . الحياة فيها دهاليز كثيرة ، ويجب سلوك طريق الحياة . هذه [الأزمة] ستمرّ ، إن شاء الله ، فهي مثل كل الأحداث الأخرى التي كانت حلوة أو مرّة . إنّها مؤقتة ، وإن شاء الله ، سيصير طريق الحياة مُعبّداً .

الحمد لله ، والشكر للشعبين الإيراني والعراقي العزيزين على التحرّكات العفوية

في ذكرى الشهيد سليماني والشهيد « أبو مهدي »

حديثي اليوم كلمات قليلة حول الحدث المهمّ والملحمة المهمّة ليوم « التاسع عشر من دي »[١] ، وبضع كلمات حول بعض قضايا اليوم التي أثيرت في الرأي العام ، لكن قبل أن أبدأ الموضوع الرئيسي يجدر أن الحمد لله وأشكر شعب بلادنا العزيز على الحركة الملحمية العظيمة لهم في البلاد ، في ذكرى شهيدنا العزيز سليماني[٢] .

تجسّد الشهيد سليماني والشهيد « أبو مهدي » في الحركات العفوية للناس في أنحاء البلاد جميعاً . الحمد لله ، بهذه الحركة الشّعبية العظيمة ، انبعثت روحٌ جديدة في جسد الوطن والشّعب ، بل لم يكن من الممكن إنشاء هكذا حركة بأي توجيه أو أمر . هذه الحركة جاءت بسبب مشاعر الناس وقلوبهم وبصيرتهم ، والدوافع الصحيحة لهم .

كما كان هناك تجمّع كبير ورائع في بغداد ومدن عراقية أخرى لإحياء ذكرى الشهيد « أبو مهدي » ، القائد العراقي البارز ، والشهيد سليماني ، الضيف العزيز على الشّعب العراقي . خالص الشّكر لجميع الإخوة والأخوات الذين شاركوا في هذه المراسم هنا ، وفي العراق .

يجدر أن أذكر أسماء الشهداء المرافقين للشهيد سليماني ، لأن عظمة الشهيد سليماني جعلت أسماء هؤلاء أقل ذكراً : الشهيد بور جفري[٣] ، الشهيد مظفري نيا[٤] ، الشهيد طارمي[٥] ، الشهيد زماني نيا[٦] ، وجميعهم من الشهداء العظيمي المقام . وكذلك رفقاء الشهيد العراقي « أبو مهدي » الذين لم يتسنَّ لي تذكّر أسمائهم .

أيضاً يجدر إحياء ذكرى الشهداء[٧] الذين فقدوا أرواحهم خلال مراسم التشييع في كرمان ، وكذلك في حادث تحطم الطائرة المرير والمؤسف جداً في طهران ، الذي كان مأسويّاً حقاً ، كما أنه أحزن المسؤولين في البلاد . نتمنى ، إن شاء الله -

تعالى ـ، أن يجعل هؤلاء الشهداء، سواء شهداء كرمان أو طهران، في رحمته ولطفه، وأن يشمل أسرهم بالصّبر والسّلوان والسّكينة والعناية وفضله ومَنِّه. بالطبع، على المسؤولين أيضاً واجبات ذكّرناهم بها.

كما أرى من الضروري إحياء الذكرى بمناسبة الأربعين لاستشهاد الشهيد فخري زاده (رض)[٨]. لقد كان شهيداً عظيماً وشخصية عظيمة. فقدنا في المدة الأخيرة شخصيتين علميتين عظيمتين: أحدهما الشهيد فخري زاده، والآخر آية الله المصباح[٩]. كلاهما من الشخصيات العلمية البارزة. كلٌّ في مجاله الخاص وعمله الخاص. وكلاهما ترك إرثاً قيّماً في المؤسسة التي كان يديرها، وهذا يجب أن يستمرّ بقوة الله، وبأفضل حال.

مسألتان في « انتفاضة ١٩ دي »

أما عن « التاسع عشر من دي » . . . سأقول شيئين عن « التاسع عشر من دي »: أحدهما أننا بحاجة إلى حراسة ذكرى « التاسع عشر من دي » وحادثة « التاسع عشر من دي » وصَونهما، والآخر ضرورة أن نصون محتوى ملحمة « التاسع عشر من دي » ومضمونها، أي من الضروري واللازم علينا صَون الحدث نفسه وحراسته، ما يعني إبقاءه حيّاً، وكذلك حماية المحتوى لهذه الملحمة العظيمة وحراسته، وسوف أشرح السبب الآن.

١) صَون ذكرى « ١٩ دي » بوصفها من نقاط أوج الشّعب الإيراني

يجب أن نصون ونحرس تلك الملحمة نفسها، لأنها من إحدى النقاط في أوج حياة الشّعب الإيراني. الشعوب لها نقاط أوج ونقاط حضيض. يجب إبقاء نقاط الأوج حيّةً. فهي التي تُظهر الحيويّة والمثابرة للشّعب، وإرادة الشّعب وعزيمته وبصيرته في هذه الأوقات الحساسة. كان الأمر كذلك يوم « ١٩ دي ». فيجب أن تبقى نقطة الأوج حيّة، لأنها تعطي المعنوية لجيل المستقبل، ولأنها مصدرٌ للفخر والعزة الوطنية. هذه النقاط تُسجّل في التاريخ وتضيء المستقبل لجيل المستقبل.

لذلك ، لا ينبغي السماح لهذه الحادثة نفسها بأن تصير باهتة . الحمد لله ، حتى يومنا ، ظلّت هذه الحادثة حية ونشيطة ، وينبغي أن تبقى كذلك .

٢) المحافظة على مضمون « ١٩ دي » ومنع التّفسير الخطأ لها

وأما حراسة مضمون هذه الحادثة ، حسناً ، فلكل حادث مضمون ومحتوى ومعنى . . . ما مضمون هذه الحادثة ؟ يجب علينا معرفة هذا المضمون وحراسته . لماذا نحرسه ؟ لأن الرّواة الخونة والمحللين المغرضين يحاولون تغيير محتوى الأحداث العظيمة لمصلحتهم ولمصلحة القوى الغاصبة في العالم . هذه الحالة موجودة دوماً منذ القِدم : الراوي المغرض يروي الحادثة بطريقة تجعل صورة تلك الملحمة تتبادر إلى ذهن المخاطب بعكس المقصود منها . اليوم ، مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي والإمكانات الهائلة والواسعة ، من الممكن للقوى المغرضة والأيدي الخائنة تغيير الأحداث وتغيير مضمونها ومغالطة تفسيرها وتضليل الرأي العام ، خاصة لتغيير الرأي العام للأجيال المقبلة ، وللذين لم يكونوا حاضرين في تلك الحادثة ولم يطّلعوا عليها من كثب أو لم يسمعوا بها في الزمن القريب ، ومن هم بعيدون من الحادث . اليوم ، إنّ من أهم المهمات لأجهزة التجسّس الجلوس ورصد أحداث العالم ، ثمّ ، ليس مباشرة لكن بلسان الآخرين أو بأقلامهم ، أو عن طريق مقالات وتحليلات للأشخاص ذوي الاعتبار والشهرة ، أو بالوسائل المتاحة لديهم : المال ، والتهديد ، والتطميع . . . يعكسون ما ورد في الحادثة وفقاً لتفسيرهم المطلوب .

لقد قرأت في المدة الأخيرة كتاباً كتبه أمريكي . في الواقع ، لقد جمع هذا الكتاب ، لأن أشخاصاً مختلفين شاركوا في تأليفه . يدور هذا الكتاب حول سيطرة وكالة « سي آي إي » التجسّسية[١٠] على الصحف والمجلات الرئيسية في العالم . هذا الكتاب هو في الأساس عن هذا الموضوع . يشرح كيف تدخلت « سي آي إي » في المقالات والتحليلات والكتابات والبيانات لمؤلفين مشهورين ، وفي بعض

الأحيان في المجلات المعتدّ بها ، إذ لقّنت الرأي العام تفسيرها الخاص بدلاً من التفسير الحقيقي وسيطرت عليه ، ليس في الصحافة الأمريكية فقط بل في بلدان أخرى ، في أوروبا . يذكر مجلة فرنسية شهيرة ويقول إنهم فعلوا تلك الأشياء هناك . قالوا هكذا ، وكتبوا هكذا ، ما يعني أن هذا العمل شائع في العالم الآن ، وهو موجود . في الواقع ، وبذلك ، تنقل وكالة « سي آي إي » تحليلها المضلل وتفسيرها الخطأ للقضايا والأحداث إلى الرأي العام وتضلّله . هذا خطر موجود دائماً .

« ١٩ دي » مقدمة لانتفاضة عامة للشّعب

حسناً ، في ما يخصّ « التاسع عشر من دي » ، [ينبغي] أن نكون حذرين حتى لا يحدث ذلك . طبعاً سأقول بإيجاز ما هو المضمون والمحتوى والمعنى لحركة « ١٩ دي » في قم ، الحركة العظيمة التي نفّذها الشّعب والحوزة العلمية بالاشتراك . إذا انتهت قضية قم في مدينة قم نفسها وبقت محصورة فيها ، يمكن للمرء أن يحملها على أنها حركة عاطفية سببها مثلاً انفعالات دينية وعابرة ، فيقول : لقد كانوا أناساً شجعاناً . . . لقد ثاروا في حادثة ثم قُمِعت وانتهى الأمر !

قد يقولون ذلك ، لكن حادثة قم لم تكن كذلك . حادثة قم لم تنتهِ ولم تقتصر على قم . امتدت من قم إلى تبريز ، إلى يزد ، إلى كرمان ، إلى شيراز ، إلى مشهد ، إلى طهران . . . وأدّت تدريجياً إلى انتفاضة عامة . بدأت في قم ، بدأت من القمّيين ، لكن الحادثة لم تنتهِ في قم . في غضون خمسة أشهر أو ستة ، تحوّلت الحادثة إلى انتفاضة وطنية في المدن جميعها وتدريجياً في القرى ؛ ثار الجميع . ما هذه الحادثة ؟ بعد ذلك ، على أساس هذه الانتفاضة ، حدثت ثورة شعبية كبيرة وفريدة في التاريخ . . . ربما فريدة من نوعها في بعض الجوانب .

معنى « ١٩ دي » : غضب الشّعب على النظام الديكتاتوري الفاسد والمناهض للدين والأرستقراطي

حسناً ، من هذا المنظور ، لم يعد من الممكن تبسيط حادثة قم وتفسيرها

بوصفها هيجاناً . كلا ! هذه الحادثة لها معنى آخر ، لها عمق ، لها معنى أعمق . فما معنى حادثة « التاسع عشر من دي » ؟ إنها غضب وقوة اعتراض من الشّعب ضدّ النّظام الديكتاتوري ، التابع ، الفاسد ، المناهض للدين ، الأرستقراطي الطبقي . لقد تراكم استياء الناس وغضبهم مع مرور الوقت ، ووجدوا دعماً فكرياً من دروس الإمام وخطاباته وبياناته التي كانت تُنشر من قم والنجف . استطاعت هذه الحركة العظيمة خلق هذه الانتفاضة العظيمة من هذا الغضب العام للناس المعتمدين على الدعم الفكري الذي يلقيه الإمام دائماً وباستمرار ، ثمّ انعكس على يد الشباب المناضلين ، خاصة طلاب العلم في أنحاء البلاد جميعاً .

نقطتان مهمّتان في « ١٩ دي » : الجانب الديني والجانب المعادي لأمريكا

هناك نقطتان مهمتان يجب أخذهما بالحسبان وهما مصيريّتان . النقطة الأولى أنّ قائد هذه الحركة العامة كان مرجع تقليد ، عالم دين عظيم ، شخصية بارزة ، مبلّغاً ومروّجاً لأسس المعرفة الدينية . دعا هذا القائد العظيم الناس إلى الدين منذ اليوم الأول للنضال . منذ بداية النضال ، عام ١٩٦٣ ، كانت دعوة الإمام تستند إلى مبادئ دينية ، وإن كان يعترض أو يقترح عرضاً ، فهو يعتمد على المبادئ الدينية في الأحوال جميعاً . فكانت حركة الناس دينية أساساً ، لأنها كانت بقيادة الإمام ، بتعليمٍ وهدي وتوجيه منه . كان الإمام مرجع تقليد وعالم دين بارزاً ، وعمله قائماً على مبادئ دينية منذ البداية . هذه نقطة مهمة جداً .

النقطة الثانية أنه قبل أسبوع تقريباً من انتفاضة أهالي قم ، أعرب رئيس أمريكا ـ في ذلك الحين (جيمي) كارتر ـ من طهران عن دعمه الكامل لنظام بهلوي ، ومحمد رضا . لقد أعدّوا له خطاباً يلقيه في الحفل ، ووضعوا ذلك الخطاب في جيبه ، ثم بدأ الكلام ـ كَشف عنه لاحقاً مستشاروه ومرافقوه ـ وأخذ يمدح ويؤيّد محمد رضا ونظام بهلوي بصورة كاملة . لذلك ، كانت هذه الحركة في قم معادية لأمريكا ، ومناهضة للاستكبار . لقد كانت خطوة ضد تلك القوى الخبيثة التي

دعمت النظام البهلوي الديكتاتوري المناهض للدين والفاسد من أجل مصالحها الخاصة. في الواقع، كان للانتفاضة جانب ديني وآخر مناهض لأمريكا.

« ١٩ دي » الضربة الأولى للفأس الإبراهيمي على متن الصنم الأمريكي العظيم

في الواقع، يمكن وصف انتفاضة « التاسع عشر من دي » بأنها الضربة الأولى للفأس الإبراهيمي على متن الصنم الكبير. كانت هذه ضربة الفأس الأولى التي وُجهّت إلى صنم أمريكا الكبير على يد أهالي قم، واستمرت بعد ذلك، وأنتم تشاهدون الوضع في أمريكا اليوم. ترون حالة الصنم العظيم اليوم، ترون أنّ هذه هي ديمقراطيتهم، هذه فضيحة انتخاباتهم، هذه حقوق الإنسان! حقوق الإنسان هي في قتل رجل ذي بشرة سمراء في الشارع كل بضع ساعات، أو على الأقل كل بضعة أيام، دون سبب، ودون جرم، ولا تتم ملاحقة القاتل! إنها قيمهم كما يكرّرون، القيم الأمريكية، والقيم الأمريكية... اليوم صارت هذه القيم أضحوكة العالم كله. حتى أصدقاؤهم يسخرون منها. وهذا أيضاً اقتصادهم المشلول. إن الاقتصاد الأمريكي مشلول بكل معنى الكلمة، فهناك عشرات الملايين من المتعطّلين عن العمل والجياع والمشرّدين. هذا هو الوضع في أمريكا اليوم. هذا أمر مهم بالطبع، لكن الأكثر غرابة منه أن بعض الناس لا تزال لديهم القِبلة في أمريكا، ولا يزال لديهم أمل وحلم بها، بأمريكا بمثل هذه الحالة!

حسنًا، قلنا إن الانتفاضة العامة كانت معادية لأمريكا. لم يكن السبب حصراً أن رئيس أمريكا قد جاء الآن و[أيّد الشاه] بنسبة ١٠٠%. في الواقع، كانت تنفيساً للاستياء والغضب الداخلي عند الناس، فقد كانت أمريكا تمارس أنواع الضغط كافة على الشّعب خمسة وعشرين عاماً عبر نظام بهلوي الاستبدادي والفاسد، الذي جعل إيران في الواقع قاعدتها الرئيسية. لم تكن نتيجةُ ذلك تقدّماً لبلادنا، بل على العكس، نتيجةُ الوجود الأمريكي في بلادنا كانت الفقر الاقتصادي والفقر العلمي

والفساد والانحطاط الثقافي. لقد خلقوا مثل هذا الوضع. يعتقد بعض الناس الآن أننا إن تعاملنا مع أمريكا، وإذا تصالحنا وصرنا أصدقاء، فإنّ الوضع في البلد سيتحوّل إلى جنّة. كلا! انظروا إلى ما قبل الثورة وكيف كان الوضع. انظروا إلى البلدان التي تتملّق لأمريكا، وانظروا إلى وضعهم، وضعهم الاقتصادي والعلمي... في منطقتنا نفسها، ولن أسميهم، فأنتم تعرفونهم.

بالطبع، حتى بعد تلك الثورة العظيمة، لم تكفَّ أمريكا يدها. يسعون إلى الاستمرار بتلك الهيمنة الجهنمية نفسها على بلدنا، ليس على بلدنا فقط، [بل] على إيران والمنطقة كلها. أن يتساءل بعض الناس ما الفرق بين أمريكا ودولة أوروبية، فهذا هو الاختلاف. أمريكا، لأنها استفادت هنا لسنوات عدة وظلت جالسة هنا، ترى نفسها قوة متفوّقة وتسعى باستمرار إلى العودة إلى الوضع السابق، وهذا ما يجعل الشّعب الإيراني واعياً ويقظاً. بالطبع، إن بعض الحكومات الخائنة في المنطقة تساعدها.

المصالح الأمريكية مرهونة بالاضطراب في المنطقة

أقول أيضاً: أمريكا ترى مصلحتها في الاضطراب في المنطقة في الظروف الحالية. وإلى حين أنها لم تسيطر على المنطقة بالكامل، سيكون من مصلحتها قبل ذلك زعزعة استقرار المنطقة. مصلحة أمريكا في غياب الاستقرار في المنطقة. يقولون هذا بأنفسهم. يعبّرون عنه صراحة بأنفسهم. قال خبير مشهور في مؤسسة أمريكية شهيرة، «إنتربرايز»[11]، وهو خبير مشهور في مركز الأبحاث هذا، ولو أسمّيه، فهو معروف لكثير من الضالعين في السياسة. قال بصراحة إننا لا نريد الاستقرار في إيران والعراق وسوريا ولبنان. ليست إيران فقط، بل إيران والعراق وسوريا ولبنان... لا نرغب في الاستقرار ولا نريده؛ إن القضية الأساسية ليست اللزوم لزعزعة الاستقرار في هذه البلدان أو العكس، فذلك من المسلّمات:

يجب أن يحدث الاضطراب في هذه البلدان، لكن كيفية زعزعة الاستقرار هي القضية. كيف نصل إلى الاضطراب. الآن، تارةً ما وفي مكان ما عبر « داعش »، وتارةً أخرى عبر « فتنة ٢٠٠٩ » ... يفعلون أشياء مثل هذه، والأشياء التي ترونها في المنطقة. إنهم يسعون إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة، ثم يأتي مثرثر أمريكي ويقول إن إيران تسبب الاضطراب في المنطقة. كلا، بل نتسبّب في الاستقرار، وإننا نقف ضد زعزعة أمريكا للاستقرار. أرادت أمريكا أن تزعزع الاستقرار في إيران عام ٢٠٠٩، وقد نزل عليهم البلاء نفسه في ٢٠٢١. الشيء نفسه الذي حدث في واشنطن في هذه الأيام، خاصة أول من أمس[١٢]، عندما ذهب أشخاص إلى الكونغرس فاقتضى تهريب أعضائه عبر ممرات سرية. أرادوا أن يفعلوا ذلك في إيران، أرادوا خلق الفوضى هنا، أرادوا أن يُشعلوا حرباً أهلية، والله - تعالى - لم يوفقهم لذلك. كانوا يسعون [إلى الفوضى] هنا في ٢٠٠٩، وقد جلب الله - تعالى - عليهم البلاء نفسه في ٢٠٢١.

حضارةٌ إسلامية جديدة هدفُنا النهائيّ

بالطبع، عندما ننظر إلى مسار حركة البلد والثورة من « ١٩ دي » حتى يومنا، [نرى] عشرات المرات على الأقل - يمكن أن نقول مئات المرات، لكن لا أريد استخدام كلمات كبيرة جداً - كيف اكتسب بلدنا القوام المتسّق والصّلابة والعمق والنّضج والخبرة، وصار مجهّزاً. لم نكن مجهّزين في ذلك اليوم. نحن اليوم مجهّزون بصورة كبيرة، مجهزون فكرياً وعملياً وسياسياً وعسكرياً، بحمد لله. لقد تغلبنا على كثير من العقبات. الهدف هو إنشاء حضارة إسلامية جديدة. هذا هدفنا النهائي. جيلٌ واحد قد لا يصل إلى هذا الهدف، لكن هذا الطريق سيستمر، وإن شاء الله، ستصل الأجيال المقبلة إلى هذا الهدف.

علينا التغلب على المطبّات التي يضعها المهيمنون في طريقنا، والسياسات

الخبيثة التي يحيكونها ضد بلدنا. موقفنا ضد الحكومة الأمريكية ينطلق من هذا الفكر وهذا الاستدلال وهذه الفلسفة. هذا حديثي حول « ١٩ دي ».

تحديات مهمّة بين إيران وجبهة الاستكبار

في ما يخصّ بعض القضايا السّاخنة: من القضايا المتكرّرة في المواجهة بين الجمهورية الإسلامية وجبهة الاستكبار التي تقودها أمريكا الأولى مسألة الحظر، والأخرى قضية الحضور الإقليمي لإيران، وأيضاً القدرة الدفاعية والقدرة الصاروخية الإيرانية، فيقولون دائماً أمراً ما، وكلاماً ما، وتذمّراً ما... وهذا الجانب يردّ عليهم بإجابة ما.

طبعاً عناصرنا الداخلية والمسؤولون في الداخل قد ردّوا على جبهة الاستكبار في القضايا الثلاث، سواء أكانوا مسؤولينا العسكريين أم وزارة الخارجية أم شعاراتنا الشّعبية... لقد ردّوا عليهم، لكنني الآن سأقول الكلام الفصلَ والنهائيّ في هذا الصدد.

١ـ الحظر الغادر والخبيث

أمّا في الحظر، فجبهة الغرب وأعداؤنا ملزمون بوضع حدٍّ لهذه الحركة الخبيثة، أي الحظر على الشّعب الإيراني، ووقفها فوراً. هذا واجبهم: رفع الحظر كلّه. إنها حركة غادرة وخبيثة، وهذا عداء كبير لا طائل منه مع الشّعب الإيراني. ليس عداءً مع نظام الجمهورية الإسلامية أو الحكومة فقط [لكن] هم يعادون الشّعب الإيراني. واجبهم رفع الحظر سريعاً. بالطبع، قلت مرات عدة وأكرر: يجب عليهم رفع الحظر، ونحن أيضاً علينا تنظيم اقتصادنا وتخطيطه بطريقة يمكننا بها إدارة البلاد جيداً رغم الحظر. لقد كررت هذا مرات[١٣]، وسوف أكرّره مرة أخرى الآن.

لنفترض أن الحظر لن يُرفع . . . طبعاً لقد صار غير فعّال تدريجياً ، هذا يعني أنه صار شكلياً ، لكن لنفترض الآن أن الحظر سيبقى ، يجب أن نخطط اقتصاد البلد بطريقة لا نواجه فيها مشكلات في الاقتصاد مع وجود الحظر أو إلغائه ، ومع ألاعيب الأعداء الاقتصادية . هذا ممكن أيضاً ؛ الخبراء يقولون هذا ، ولست أنا من يقوله . الحريصين يقولون هذا . . . يقولون : هذا أمر ممكن ، القدرات الداخلية كبيرة جداً . وقد أبلغنا هذا بصفته سياسات عامة ، وهي سياسة « الاقتصاد المقاوم »[١٤] التي يجب متابعتها بقوّة وجدية . إذن ، [الجواب الحاسم] في قضيّة الحظر هو هذا . أما قولهم : افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا ، فهو كلام فارغ ؛ الحظر خيانة وجريمة بحق الشّعب الإيراني ولا بدّ من إزالتها . هذه مسألة .

٢ ـ حضور إيران الباعث على الاستقرار

في ما يخصّ حضورنا في المنطقة ، يقولون دائماً لماذا توجد إيران في المنطقة . نظام الجمهورية الإسلامية ملزم بالتصرّف بطريقة تعزّز أصدقاءه وحلفاءه في المنطقة . هذا واجبنا . حضورنا يعني تعزيز أصدقاءنا وحلفاءنا . يجب علينا ألّا نفعل عملاً يؤدي إلى تضعيف الأصدقاء والأوفياء للجمهوريّة الإسلاميّة في المنطقة . حضورنا على هذا النحو . وهو باعث على الاستقرار . ثبت أن حضور الجمهورية الإسلامية يزيل ما يسبّب فقدان الاستقرار ، مثل قضية « داعش » في العراق وقضايا مختلفة في سوريا وما شابه . . . لا أريد التطرّق إلى هذه التفاصيل . الأشخاص المعنيون يدركون هذا الأمر . لذلك ، هذا الحضور في المنطقة محسوم ، ويجب أن يكون ، وسيبقى .

٣ ـ مسألة القدرة الدّفاعيّة والصّاروخيّة الإيرانيّة

أما في القدرة الدفاعية ، فلا يجوز لنظام الجمهورية الإسلامية أن يكون

الوضع الدفاعي للبلد على نحوٍ يأتي فيه شخص عديم القيمة مثل صدام حسين ويكون قادراً على قصف طهران وإطلاق الصواريخ وأن تحلّق طائراته « ميغ ـ ٢٥ » في سمائها ولم يكن النظام (آنذاك) قادراً على فعل شيء . هذا قد حدث . في مدينة طهران هنا . كانت إما تُستهدف بالصواريخ العراقية ـ هؤلاء « السادة » الأوروبيون أنفسهم عملوا على تعزيز قدرات [صدام] الصاروخيّة حتى تصل صواريخه من بغداد إلى طهران وبقية المدن ـ أو بطائرات « ميغ ـ ٢٥ » التي تقصف من ارتفاع عالٍ ولم نتمكّن من فعل أي شيء ؛ لم تكن لدينا إمكانات . لا يجوز للنظام الإسلامي أن يبقيَ البلد على هذا النحو . نحن لم نبقيها على هذا النحو ، بتوفيق إلهي . اليوم ، قدراتنا الدفاعية تجعل أعداءنا يأخذون هذه القدرات بالحسبان . عندما يتمكن صاروخ الجمهورية الإسلامية من إسقاط الطائرة الأمريكية التي دخلت الأجواء الإيرانية ، أو تتمكن الصواريخ الإيرانية من ضرب قاعدة « عين الأسد »[١٥] بهذه الطريقة ، سيكون العدو مُجبراً على أن يأخذ قوّة هذا البلد وقدراته في حساباته الخاصّة وقراراته العسكريّة . يجب ألّا نترك البلاد دون قدرات دفاعيّة . هذا واجبنا . لا ينبغي أن نجعل العدو يجرؤ علينا وألا نكون قادرين على أن نفعل شيئاً في مواجهته .

نقاط حول الاتفاق النووي وتقليص التزامات الجمهوريّة الإسلامية

هناك قضية أخرى تتكرر اليوم كثيراً على لسان المسؤولين والشّعب والسياسيين وفي الفضاء الافتراضي وغير الافتراضي ، وهي قضية الاتفاق النووي والالتزامات التي أعلنتها الجمهورية الإسلامية ووضع بعض هذه الالتزامات جانباً ، والبدء أخيراً في التخصيب بنسبة ٢٠% وتنفيذ الحكومة قرارَ البرلمان . هذه إحدى النقاشات التي يجري التداول بها اليوم . أودّ أن أشير إلى نقطتين أو ثلاثٍ حول قضية الاتفاق النووي .

١ـ عودة أمريكا إلى الاتفاق

النقطة الأولى : يثيرون مسألة هل على أمريكا أن تعود إلى الاتفاق النووي أم لا ؟ الجمهورية الإسلامية ليس لديها إصرار ولا هي مستعجلةٌ لعودة أمريكا إلى الاتفاق . عودة أمريكا أو عدمها ليست قضيتنا أصلاً . فالمطلب المنطقي والعقلاني للمطالبة به هو رفع الحظر . يجب رفع الحظر . هذا حقّ مغتصب لشعبنا ، وواجب عليهم أن يؤدّوا حقّ الشّعب الإيراني ، سواء أمريكا أو أوروبا الذين هم معلّقون بأمريكا وتابعون لها . إنْ رُفع الحظر ، تصير عودة أمريكا إلى الاتفاق ذات معنى . طبعاً موضوع الخسائر ، وهو أحد مطالبنا ، ستجري متابعته في المراحل المقبلة ، لكن بلا رفعٍ للحظر ، قد تكون عودة أمريكا إلى الاتفاق النووي مضرّة بالبلد ، فهي ليست من مصلحتنا ، [بل] قد تكون مضرّةٌ بنا . وطبعاً ، طلبت من المسؤولين في السلطتين التنفيذية والتشريعية المضيّ قُدماً والعمل على هذه القضايا بدقّة والمراعاة الكاملة للضوابط .

٢ ـ القرار الصائب في إلغاء الالتزامات

المسألة الثانية : إنّ قرار « مجلس الشورى الإسلامي » والحكومة إلغاءَ جزء من التزامات الاتفاق النووي قرار صائب ومنطقي وعقلاني تماماً ومقبول . عندما لا يفي الطرف الآخر بالتزاماته جميعاً في الاتفاق ، لا معنى أن تفيَ الجمهورية الإسلامية بالتزاماتها جميعاً . لذلك ، منذ مدة ، ألغوا تدريجياً بعض التزاماتهم ، وقبل مدة قصيرة ، ألغوا التزامات أخرى . بطبيعة الحال ، إذا عادوا إلى التزاماتهم ، سنعود إلى التزاماتنا ، وقد قلت هذا من البداية . كما قلت منذ طُرحت مسألة الاتفاق : يجب أن يكون الالتزام مقابل الالتزام وعملهم مقابل عملنا . كل ما يتوجب علينا فعله ينبغي على الطرف المقابل أن يعمل مقابله . هذا ما لم يحدث في البداية لكن يجب أن يحدث الآن .

الاستفادة من المبادرة وحيوية الشباب مع خبرة الأفراد المجرَّبين

مسألة أخرى لا ضير من أن أطرحها، ولقد دوّنتها هنا، هي أنني سمعت سؤالاً، وقد قلت ذات مرة في برنامج تلفزيوني[١٦] بُثّ في المدة الأخيرة على ما يبدو، إنه ينبغي أن تأتي حكومة فتيّة وذات نهج متديّن، وقد قلت ذات مرة إنه لا مصلحة في الاستفادة من المُجرَّبين.

قال بعضهم: وكيف ذلك؟ هاتان لا تنسجمان معاً. أقول: لا، هاتان تنسجمان مع بعضهما بعضاً، ولا تتنافيان مع بعضهما بعضاً. التفتوا! أنا أؤمن بالاعتماد على قوّاتي الشابة، ولديّ إيمان راسخ بذلك، وهو لا يخصّ اليوم، فقد كنت أؤمن بذلك منذ القِدم. معنى الوثوق بالقوى الشابة أنه أولاً في بعض الإدارات المهمة في البلاد يجب الاستفادة من الشباب والوثوق بهم. ثانياً ينبغي الترحيب بالمبادرات التي يتخذونها وحركتهم وطول بالهم ونشاط عملهم. أحياناً يذهب الشاب إلى كل مكان، ويقترح شيئاً مهماً يمكنه فعله ولا يجيبونه، فيأتي إلينا، ثم عندما نحوّله إلى الخبير، يؤكد ويقول إنه صحيح. هذا عمل مهم ويمكن لهذا الشخص أداؤه. حسناً، أعتقد أن على البلاد الاستفادة القصوى من المبادرات الشبابية ونشاط الشباب وروح العمل والتَحفزّ عندهم. هؤلاء أبناؤنا، وهم أبناء البلد وله الحقّ في الاستفادة منهم. هذه هي مسألة الإدارات، وهي [النقطة المقصودة] في الوقت نفسه. لكن عندما نقول إنه يجب الاستفادة منهم في الإدارات، لا يعني هذا أننا يجب أن نتخلى تماماً عن الجيل السابق. لا! يقتضي الأمر في مكان ما الإدارة للشاب، وفي مكان آخر الإدارة لشخص مجرّب وذي خبرة عملية.

لقد كان هذا هو [المبدأ] نفسه منذ بداية الثورة. قال بعضهم إن الإمام في طهران قد عيّن إمام جمعة في الأربعين، وقد كان أنا، هذا العبد! حسناً، نعم، في الوقت نفسه أيضاً، في كرمانشاه، عيّنوا إمام جمعة يبلغ الثمانين[١٧]، وفي يزد وشيراز ومشهد وتبريز وما إلى ذلك... من العلماء الكبار، عيّنوا رجالاً يبلغون نحو

السبعين، فالأمر مختلف بما يقتضيه. في بداية الثورة، وضع الإمام الجليل على رأس « حرس الثورة » شاباً لم يتجاوز الثلاثين[١٨]، ووضع على رأس القوات البرية في الجيش رجلاً يبلغ ستين عاماً تقريباً[١٩]. فالاقتضاءات كانت على ذلك النحو. في مكان ما، يتطلب الأمر مديراً شاباً على رأس العمل، وفي مكان آخر مديراً مُجرّباً.

الآن، سأتحدّث عن الحكومة الفتيّة المتديّنة... في ما بعد، إن شاء الله، قريباً من الانتخابات. سوف أتحدث، أي لدي كلمات أقولها لاحقاً، لكن أن يُخيّل لبعضهم أننا إن قلنا: استفيدوا من المُجربين، فهذا يتعارض مع الاستفادة من الشباب. كلا! هذا لا يتنافى. بالطبع، تجدر الإشارة إلى أن بعض الأشخاص في منتصف العمر هم مثل الشباب، فقد كان الشهيد سليماني في الستين تقريباً، [لكن] رأيتم كيف يتنقل في الجبال والسهول والصحراء وكل مكان مثل الشباب، ولم يخَفْ من شيء. طبعاً، لا يعرف الناس كثيراً عن نشاطاته وأعماله، ما شوهد على شاشات التلفاز فقط. ما أعرفه أكثر من ذلك بكثير. في بعض الأحيان، خلال ٢٤ ساعة، يكون في بلد ما ويعمل بمثابرة لدرجة أن المرء يتعب من قراءة مقدار الجهد المبذول والتنقل الذي تمّ في ٢٤ ساعة أو ٣٦. هناك من هم على هذا النحو أيضاً.

بعض النقاط حول « كورونا »

١ـ اللّقاح المصنوع في إيران مبعثُ للفخر والاعتزاز

الموضوع الأخير هو موضوع « كورونا » الذي سنكرره. أولاً إن اللّقاح [الإيراني] المُعدّ لـ « كورونا » أمر يدعو للفخر. فلا تنكروا هذا. هذا اعتزاز لأي بلد. إنه فخرٌ للبلد. بالطبع، يسيرون نحو صناعة اللّقاح بطرق مختلفة، وقد وصل إلى مرحلة الاختبار على البشر وكان ناجحاً. فلا تحاولوا إنكار هذا. هناك بعض من

يرون أن إنجاز أي عمل عظيم في البلاد مستبعد. عندما صنع شبابنا أجهزة الطرد المركزي النووية هذه، وقد ذكرتها وأشرت إليها مرات عدة في خطاباتي، كتب لي بعض هؤلاء الكبار في المجال العلمي رسالة تقول: سيدي! لا تنخدعوا بهؤلاء، فهم لا يستطيعون فعل شيء كهذا. كانوا ينكرون ذلك، ويقولون إنه لا يمكن فعله، لكنكم رأيتم ما حدث وإلى أين وصل. ينطبق الشيء نفسه على مسألة الخلايا الجذعية. عندما استطاع المرحوم كاظمي[٢٠] وهؤلاء الشباب الأعزاء، الحمد لله، الذين ما زالوا حتى اليوم، إنتاج الخلايا الجذعية، وهو عمل عظيم جداً ضمن القضايا البيولوجية البشرية، فوراً أيضاً صار يُرسل إلينا عدد من الأشخاص برقيات أو يكتبون رسائل ـ لا أتذكر الآن هل كانت رسائل ـ ألّا تُصدّقوا كثيراً. جاء بعضهم إلى هنا وقالوا لي: لا تصدق هذا كثيراً، وهذا ليس معتدّاً به. كلا! لقد كان معتدّاً به وصدقناه وكان ذلك صحيحاً آنذاك، ثم تطوّر عشرة أضعاف. إنه الشيء نفسه الآن. لقد صنعوا هذا اللّقاح وجُرّبَ على البشر، وإن شاء الله، سيصنعون أفضله وأكمله أيضاً، أي سيكون أكثر اكتمالاً يوماً بعد يوم، وقد نجح حتى الآن، وبعد هذا، إن شاء الله، سيكون ناجحاً. هذه أول نقطة تدلّ على أن هذا مصدر فخر. أشكر جميع المعنيين وزارة الصحة وغيرهم ممن شاركوا في إنتاج اللّقاح.

٢ـ منع اللّقاحات الأمريكية والبريطانية والفرنسية

النقطة الثانية بخصوص «كورونا» هي أن اللّقاحات الأمريكية والبريطانية غير مسموح دخولها إلى البلاد. لقد قلت هذا للمسؤولين، وأقول ذلك للعموم الآن. لو كان بإمكان الأمريكيين إنتاج اللّقاح، ما حدثت كارثة «كورونا» في بلدهم. قبل أيام قليلة، في غضون ٢٤ ساعة، كان لديهم أربعة آلاف ضحية. إذا كانوا يعرفون كيف يصنعون لقاحاً، وإذا كان مصنع «فايزر» الخاص بهم قادراً على صنع لقاح، لماذا يريدون إعطاءه لنا؟ بل ينبغي أن يستهلكوه بأنفسهم حتى لا يكون لديهم

هذا القدر من القتلى والموتى. الشيء نفسه ينطبق على بريطانيا. لذلك، لا ثقة بهم؛ أنا حقاً لا أثق... لا أعرف، أحياناً يريدون تجربة اللّقاح على دول أخرى، لمعرفة هل يعمل أم لا. لذلك [غير مسموح اللّقاحات] من أمريكا وبريطانيا. بالطبع، لست متفائلاً بشأن فرنسا، لأن لديهم سابقة في الدم الملوّث[٢١]. طبعاً، إذا أرادوا الحصول على لقاح من أماكن أخرى - على أن يكون مكاناً مطمئناً ــ لا مشكلة.

٣ـ الاستمرار بالإجراءات الصحية

النقطة الثالثة بشأن «كورونا» هي أن المراعاة الشّعبية يجب أن تستمر. الآن انخفض عدد الضحايا قليلاً. بالطبع إنه ما زال كثيراً. مئة، أو مئة شخص أو أكثر، في اليوم، ليس شيئاً قليلاً. إنه كثير. لكن الآن [لأنه] قلّ عن ذي قبل، يجب ألّا يعتقد الناس أنّ المشكلة قد حُلّت وانتهت. كلا! استمروا في المراعاة، وعلى مسؤولي الدولة الذين هم مسؤولون عن هذا الأمر متابعة واجباتهم.

٤ـ الاستفادة من الخبرات الجديدة

النقطة الرابعة حول «كورونا» هي أن بعض الأشخاص لديهم تجارب جيدة في هذا المجال وصنعوا دواءً، وجربوا هذا الدواء في مكان ما تحت إشراف المسؤولين، وتم اعتماده وثبتت فعّاليته، فلا تعارضوا هؤلاء. قد يكون هناك كثير من الأشخاص من حولكم يفعلون شيئاً جديداً. طبعاً لا أقصد قبول أي ادّعاء. كلا! لكن تأكّدوا من صحة تلك الادعاءات.

التفاؤل بالمستقبل والنجاح في المجالات الاقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية

الكلمة الأخيرة لشعبنا العزيز وشعب قم العزيز والحوزة العلمية المعظّمة هي أنّ الشّعب الإيراني استطاع في الأمس أن يقوم بهذه الثورة العظيمة في ظل الوحدة والعزم والتديّن والحضور في الوقت المناسب والنضال. استطاع القيام بهذا العمل العظيم الذي غيّر مجرى تاريخ العالم والبشر. واليوم، هذا الشّعب ذاته، بالقدرات نفسها والمزيد من الخبرة، ومع الإمكانات المتوافرة، حاضر بأضعاف، ويمكنه التغلب على العقبات كافة. يمكن لهذا الشّعب أن يكون موفّقاً في المجال الاقتصادي، وفي مجال الإنتاج والقيمة النقدية، وفي الشؤون الثقافية والسياسية والعسكرية وما شابه.

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يُضاعف فضله ولطفه على هذا الشّعب يوماً بعد يوم، إن شاء الله. والسلام على وليّ الله الأعظم، بقية الله، الحجة ابن الحسن ـ أرواحنا فداه ـ الذي كان عونه دائماً سنداً لنا. وسلام الله ورحمته على روح الإمام العظيم المطهّرة والمباركة، والذي فتح لنا هذا الطريق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش:

[١] انتفاضة أهالي مدينة قم في ١٩٧٨/١/٩، المشهورة بـ« انتفاضة ١٩ دي ».

[٢] استُشهد الفريق قاسم سليماني (قائد « فيلق القدس » في قوّات « حرس الثورة الإسلامية ») إثر هجوم طائرة مسيّرة أمريكية على مطار بغداد فجر الجمعة (٢٠٢٠/١/٣) برفقة الشهيد « أبو مهدي » المهندس (القائد في « الحشد الشّعبي » العراقي) وثمانية آخرين من المرافقين لهما.

[٣] الشهيد حسين بور جعفري (المساعد الخاص للشهيد سليماني).

[٤] الشهيد شهرود مظفري نيا (مرافق الشهيد سليماني).

[٥] الشهيد هادي طارمي نيا (مرافق الشهيد سليماني).

[٦] الشهيد وحيد زماني نيا (مرافق الشهيد سليماني) .

[٧] خلال مراسم تشييع جثمان الشهيد قاسم سليماني ودفنه في مقبرة شهداء كرمان ، استُشهد عدد من المواطنين وسط ازدحام الحشود . كما أصيبت طائرة ركاب أوكرانية متجهة من طهران إلى كييف بالخطأ في ٢٠٢٠/١/٨ بواسطة الدفاع الجوي الداخلي ، ما أدى إلى استشهاد ركابها جميعاً .

[٨] الشهيد محسن فخري زاده العالم النووي والدفاعي الذي استشهد باغتيال في ٢٠٢٠/١١/٢٧ في منطقة آبسرد في دماوند .

[٩] آية الله محمد تقي مصباح يزدي (عضو « مجلس خبراء القيادة » ورئيس « مؤسسة الإمام الخميني التعليمية والبحثية ») .

[١٠] وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) .

[١١] American Enterprise Institute .

[١٢] اقتحام المئات من أنصار دونالد ترامب مبنى الكونغرس الأمريكي واحتلاله لساعات ، ما أدى إلى اشتباكات عنيفة مع القوات العسكرية والأمنية أسفرت عن مقتل أربعة أشخاص على الأقل .

[١٣] من كلمته في لقاء أعضاء « المجلس الأعلى للتنسيق الاقتصادي » (٢٠٢٠/١١/٢٤) .

[١٤] إبلاغية السياسات العامة « الاقتصاد المقاوم » (٢٠١٤/٢/١٨) .

[١٥] في ٢٠٢٠/١/٨ ، وفي عملية أطلق عليها اسم الشهيد سليماني ، استهدف « حرس الثورة » القاعدة الأمريكية في « عين الأسد » بصواريخ باليستية . وجاءت العملية رداً على العمل الإرهابي الأمريكي ، اغتيال الشهيد سليماني .

[١٦] برنامج وثائقي تحت عنوان « غير رسمي » .

[١٧] آية الله عطاء الله أشرفي إصفهاني .

[١٨] اللواء محسن رضائي .

[١٩] أمير قاسم علي ظهير نجاد .

[٢٠] سعيد كاظمي آشتياني (الرئيس الأسبق لمؤسسة « رويان » التحقيقية) .

[٢١] في الثمانينيّات ، صدّر معهد « إنستيتو مَريو » الفرنسي مخثرات الدم الملوّثة بفيروس نقص المناعة البشرية (الإيدز) إلى إيران . ونتيجة لاستخدام هذا الدم أصيب عدد كبير من مرضى الهيموفيليا بالفيروس وفقدوا حياتهم .

مَنْ عَبَقِ الذِّكْرَى السَّنَوِيَّةِ

لِقَادَةِ النَّصْرِ

حُشُودُ السِّيَادَةُ وَالشَّهَادَة

رَسَائِلُهَا - نَتَائِجُهَا

الوَاقِعُ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ
الحَاج أَبُو مَهْدِي المُهَنْدِس والحَاج سُلَيْمَانِي

❖ السيد محمّد صادق الهاشمي [1]

(١) باحث وكاتب / مدير مركز العراق للدراسات.

خرجت بتاريخ ٣ـ كانون الثاني ـ ٢٠٢١ تظاهرات مليونية في العاصمة بغداد مما سبب سرورًا لبعضهم ، وصدمة لآخرين ، وبالإجمال فإنْ كانت تنتمي هذه الجماهير المتظاهرة إلى الحشد الشعبي والمقاومة فهذا نصر وعمق ، وإنْ كانت جماهير تعبوية فهو نصر أكبر . وهنا عدد من النقاط :

أولًا : ما أشارت إليه التظاهرات المليونية

١ــ هذه الجماهير ترسم صورة العملية السياسية الشيعية مستقبلًا ، وتحدد مصير القوات الأميركية في العراق .

٢ ــ تُبيِّن هذه الحشود حجم وعمق الوعي الثوري في أعماق الأمة وإيمانها بخط الدفاع عن العملية السياسية .

٣ ــ الآخر ــ الخارج والداخل الإقليمي والدولي ـ مهما كان ينظر إليها وفق حسابات العدد الكبير الذي شارك في التظاهرات ، وطبقة الشبّان والشّابات المشاركة ، والشعارات التي رُفِعَت والحماس الذي أظهرته الجماهير ، ويبني هذا الآخر من الأحزاب الشيعية وغيرها وحتى أميركا ؛ فإنه يقرأ النتائج الانتخابية وفقها ومن خلالها يدرك حجمه الانتخابي مستقبلًا ، وقد تأكد كذلك مقدار رسوخ عقيدة ومنهج الشهيدين في الجماهير (منهج المقاومة ومواجهة الاستكبار) .

من هنا هاجمها بعضهم ، وحذر منها بعضهم ، وتربص فيها آخرون ، وربما تؤجل الانتخابات لأنهم استشعروا الحجم الانتخابي للخط

الثوري .

٤ ـ اليوم انتهت (ثورة الجوكر) شعارًا ومكانًا وزمانًا ، خصوصًا أنَّ المتظاهرين اختاروا الأماكن ذاتها التي تحرك منها الخط الأميركي ، وتبين للجماهير الفرق في الممارسات والقيم والاحترام بين الخط الثوري والخط الأميركي ، وكذلك بين من يريد فتح الأبواب لانتهاك السيادة وبين من يفتح الأبواب لتعزيزها .

٥ ـ إيران اليوم عادت منتصرة ، ولم يعد مكانًا للقول إنَّ إيران انتهت بمنهجها الثوري الإسلامي في العراق ؛ وتلك الجموع شاهدة وهي تهتف بحياة الشهيد سليماني ، وحولت يوم الشهادة إلى يوم السيادة ، ويوم الوحدة بين إيران والعراق ، وأكدت الخطب التي ألقاها الفياض والعامري ؛ بأنَّ العراق وشعبه يسيران على منهج التحرر ومواجهة المشروع الأميركي ، وطرد الاحتلال من أرض العراق .

٦ ـ اكتشف أعداء الثورة الإسلامية ، والذين يريدون الوقوف على الحياد بطلان مقولة : إنَّ (التظاهرات الجوكرية) ومجيء حكومة منهم ، واغتيال الشهيدين ؛ أفقدَ الحركة الإسلامية التأثير والعمق الشعبي ، فالمشروع ما زال قائمًا في أمة وليس في أحزاب .

٧ ـ بعضهم ـ من القوى السياسية ـ يعيشون الصدمة لهذا الحشد الجماهيري وشعاراته ، ومنَ المؤكَّد ليس أمامهم إلا تصحيح أفكارهم ، وإعادة حساباتهم ؛ فلا مكان (للجوكر) مع وجود المقاومة ، أمّا القوى السياسية البقية فالحكم بينهم وبين الخط الثوري الميدان والجمهور .

٨ ـ بَيْدَ أنَّ الكلام بصراحة ووضوح كل هذا المنجز مبنى على قدرة القيادة لإعادة تشغيل المشروع الخدمي ، وتفعيل الاتصال بالأمة عبر تلبية مطالبها ، وتحويل الفورة إلى ثورة أيديولوجية ، والثورة إلى دولة .

فلا يمكن لأمة العيش فقط بالشعارات ، بل بالمشاعر الصادقة والعملية المتصلة بحياة الناس

ورزقهم ، ومصيرهم ، وأمنهم الصحي والاجتماعي والاقتصادي والتعليمي وغير ذلك .

ثانيًا : آفاق المستقبل السياسي والجهادي بعد اغتيال الشهيدين

أما آفاق المستقبل السياسي بعد اغتيال الشهيد سليماني والشهيد المهندس في العراق والمنطقة فهي :

١ــ إنَّ دم الشهيدين أكّد من خلال حضور الجماهير العراقية المليونية في العراق عمومًا وتحديدًا في ساحة التحرير وشارع الشهيد أبو مهدي المهندس (المطار سابقًا) ، والفعاليات كلها تُثبِتْ أنَّ الخط الثوري ما زال بعِزٍّ قوته وتلاحمه ، وتؤكّد أنَّ ترمب تمكن من تصفية جسد الشهيدين ؛ إلّا أنه بجريمته فجَّر في الأمة الحماس لمواصلة طريق الجهاد ، ورصَّ الصفوف لمحاربة العدوان الأميركي .

٢ ـ دم الشهيدين فعَّل الطاقات ، وتحول إلى أمة ثائرة سائرة على خطهما ، لكن أميركا تعاني العزلة ، وارتفاع منسوب الكراهية لها في العراق والعالم الإسلامي ، فإنَّ دم الشهيدين في الذكرى السنوية الأولى حرك الملايين وهي تهتف بيوم (الشهادة والسيادة) ، وفي الوقت نفسه فإنَّ أميركا لا تتمكن من تحريك نفر واحد في العراق ، وهي تعاني من العزلة والانكفاء .

٣ ـ دم الشهيدين ألغى الفواصل الجغرافيَّة ، وأوجد جغرافيا سياسية ؛ تمتد من قلب طهران إلى العراق وصولًا إلى سورية ولبنان ، هذه الجغرافيا سوف تكون فاعلة في إيجاد محور إسلامي يعتزُّ بهويته الإسلامية ، ووجوده السياسي ، وسيطرته على دولته ، وحفاظه على عمليته السياسية ، واستثمار طاقاته البشرية والاقتصادية ؛ وهو اليوم في طريقه إلى البناء ، واستعادة السيطرة على مجريات الأحداث .

٤ ــ دم الشهيدين أثبت أنَّ

الملايين من أمة العراق تسير بهذا المنهج الثوري.

نعم، إنها تسير إلى الثبات والتلاحم وتحقيق المنجز الجهادي؛ لطرد المحتل، ورسم عملية سياسية يكون الخط الثوري نواتها، ومن خلال هذا المنهج تَبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود؛ (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ)؛ ولا مكان في العراق للناكثين والقاسطين والمارقين.

٥ ـ الخط الثوري المقاوم اكتشف اليوم؛ ومن خلال توجهاته العملية أنه مطالبٌ بالعقلانية والعمل المخلص والفهم العميق والنزاهة العالية؛ لبناء الدولة العراقية، فالمقاومة اليوم أكثر نضجًا وأعمق فهمًا وأدق في خطواتها، وقد وُحِّدَت المقاومة أكثر من أي وقت مضى، ونُظِّمت شئونها؛ لتغطي مساحة العراق، وترسم مستقبله، وتبني وجوده، وتحقق سيادته، وتنهض بالخدمات والتلاحم مع الأمة.

٦ ـ دم الشهيدين أنهى مقولة من يقول بإمكانية التطبيع مع الاحتلال الأميركي، وأنهى التقسيم والتراجع، وأبقى صورة العراق موحدةً مشرقة بإذن الله تعالى.

٧ ـ هذا هو العراق بعد الاغتيال، فهو يسير إلى القوة؛ بعد أنِ اعتقد المرجفون بأنَّ الوهن يعتري مسيرته، ومن نتاج الحراك الثوري هو ارتفاع صوت الأمة الداعية إلى السيادة؛ وإنِ اعتقدتْ أميركا وأذنابُها غير ذلك فلينظروا إلى هتاف الملايين: (امريكا بره – بره).

ثالثًا: التداعيات

١ ــ أميركا أدركت حجم الخط الثوري، وهكذا الرأي العام؛ فإنها سوف تعيد حسابتها بعد أنْ أُكِّدَ لها أنَّ خط الشهيدين لم ولن ينتهي، بل تعمق أكثر، وتحول إلى جمهور عراقي واسع كما أشار السيد نصر الله لهذا؛ من خلال إشادته بالتظاهرات المليونية العراقية قائلا: « إنَّ أوسع تظاهرة انطلقت في عموم المنطقة كانت من

الشعب العراقي » .

٢ ـ هذه التظاهرات أنهت شرعية الاحتلال العراقي ؛ كون الشعب العراقي عام ٢٠٢٠ وعام ٢٠٢١ خرج بتظاهرات مليونية تندد بالاحتلال ، والجماهير هي مصدر الشرعية ، وتلك التظاهرات استفتاء واضح على رأي الأمة العراقية في رفض الاحتلال ؛ من خلال تعمق الوعي لدى الشعب العراقي عن عدوانية أميركا لها .

٣ ـ أدرك المنافسون السياسيون ومنهم التيار الصدري حجم المنافس الانتخابي : (الخط الإسلامي الثوري) الحجم العددي ، وقدرته على تعبئة الجماهير ؛ لذا غرد السيد مقتدى مفسرًا إنَّ هذه الحشود تريد جر العراق إلى أزمات أمنية ! ، وبالتأكيد فإنَّ تغريدته وتصريحات الناطق باسمه (صلاح العبيدي) جاءت بعد الشعور العميق للتيار بحجم الخط الثوري انتخابيًا ، وهم يدركون التزام هذا الخط بالأمن ، وأنهم مع مطالبهم الحقة بدم الشهيدين ؛ إلا أنهم ليسوا بصدد جعل العراق ساحة صراع كما ورد في كلام وخطب القيادات بقدر ما يعني أنَّ هذه الجموع تطالب بالأمن ، ومعاقبة القاتل وليس السكوت على جريمة أميركا أمنًا ! ، ولا تماديها استقرارا ! .

٤ ـ الخط الأميركي قد يعمد إلى تأجيل الانتخابات ، وقد فعلها السيد الحلبوسي بتمديد الفصل التشريعي لمناقشة الموازنة دون التطرّق إلى المحكمة الاتحادية .

كل هذا لأنَّ الطرف الأميركي أدركَ بأنَّ الخط الثوري خرج من ركام المعركة منتصرًا ، ويمتلك الشعبية التي أراد (الجوكر) ومن يقف خلفه انتزاعها منه .

٥ ـ ظهر أنَّ دم الشهيد سليماني وأبو مهدي ألغى الفواصل الجغرافية بين البلدين (العراق وإيران) ؛ فالثقافة التحررية الثورية هي التي تمتد من قلب طهران إلى بغداد ، وهذا ما أُكِّدَ عمليًا برفع صور الشهيدين : أبو مهدي وسليماني في بغداد وطهران ، وكذلك بأنَّ الثقافة الحاكمة بين الجماهير هي

الثقافة الثورية، وتلك الثقافة وهذا الوعي العميق بالتأكيد يرسمان مستقبل الأمة الإسلامية سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا وانتخابيًا... وكل شيء، ويحدد مساحة القطب الإسلامي، ويمكّنه من التموضع في أهم منطقة جغرافيًا؛ بما يقلب المعادلات، ويغير التوازنات، فلم يتمكن بعد اليوم (عربان الخليج) وحدهم في المنطقة، ولم يعد لأميركا مساحة معتد بها في عالمنا المستقل؛ في الوقت الذي تمسك تلك الجماهير بأرض العراق، وتقرر مصيره، وتؤمن بعمليتها السياسية ومستقبلها الدستوري الديمقراطي، وهنا تقف الجماهير ضد الانقلابات وضد التحديات.

٦ ــ السيادة تُبعَث من إيمان الجماهير، وهذا ينطبق على واقع العراق، فليس بعد الملايين المنددة بالاحتلال والجريمة الأميركية من قدرة، أو إمكانية للقول بأنها تمكنت من فرض وجودها، أو تملي على الشعب العراقي الإيمان بقواعدها ووجودها، ولا يمكن لأميركا الادِّعاء ــ ولو كذبًا ــ بأنَّ الشعب العراقي مؤمن بها، بل الذي أُكِّدَ هو رفضُهُ لها.

٧ ـ الخط الذي يريد المهادنة مع الأميركان، والمؤمن بهم لم يعد هو الأقدر والأكفأ على قيادة الساحة السياسية الشيعية، ولم يعد هو الأوحد؛ فالجماهير لا تؤمن بأيِّ مهادنة، أو ما يقال عن وسطية تساوي بين المجرم والضحية!، ولم يعد لدى ذلك الخط ما يقوله؛ بعد الصوت الشعبي الواسع الرافض لأميركا، والمؤمن بالسيادة والتحرر.

٨ ـ سوف يحاول الأميركيون إعادة حساباتهم، ومن المؤكد أنهم سوف لا يفكرون بعد اليوم بالبقاء، ولا باستهداف الحشد والمقاومة، وقد تأكد لهم أنَّ كل المؤامرات لتقليص الحشد، أو إنهاء شعبيته؛ باتت فَشِلَة.

مَدْرَسَةُ الحَاجُ قَاسِمْ
وَعَقِيدَتُهُ القِتَالِيَّةِ وَجُغْرَافِيّا
آخِرِ الزَّمَان...!

❖ **محمّـد صـادق الحسيني** [1]

(١) باحث وكاتب من العراق.

منـــذ ان انتقـــل الحـــاج قاســـم سليماني في تسعينات القرن الماضي من ميدان العمل القتالي على ساحة وطنه الاول الذي تشبع به في جبهة الدفاع المقدس عن ثغور الثورة الاسلامية الى خارج حدود الجغرافيا الايرانية بعد تسلمه قيادة قوة القدس في الحرس الثوري، بدأت عملياً التطبيقات الميدانية للمشروع الذي طالما حلم به وعمل لاجل انجازه الامام الراحل روح الله الموسوي الخميني وسائر قيادات الثورة الاسلامية وعلى رأسهم خليفته الامام السيد علي الخامنئي...

فهذه الثورة المحمدية العلوية الحسينية الاصيلة لم يكن هدفها الاساس تحرير ايران فحسب من ربقة الاستعمار والتبعية والخنوع لنظام الهيمنة العالمي، بل تحرير المسلمين جميعا حيثما استضعفوا، في مقدمة... لقيام ثورة المستضعفين في العالم كله..

ولما كانت البوصلة الاساس هي التوجه بجيش مليوني نحو القدس وفلسطين، فقد كانت قوة القدس هي محط آمال هذا التحول والامال المعقودة على الثورة الجديدة...

لقد تمكن الحاج قاسم من خلال مجموعة من الصفات والسمات والاخلاق والسلوكيات التي اكتسبها منذ النشأة في بيته وبين اهليه في كرمان... الى ان تبلورت في شخصيته اكثر فاكثر في جبهات قتال الثماني سنوات من الدفاع المقدس... ان يتحول الى النموذج المطلوب الذي سرعان ما سيغير كل

خرائط واقدار المنطقة وجغرافيا العلوم العسكرية والامنية والمجتمعية وكذلك اخلاقيات ومناهج حركات التحرر العربية المحيطة بفلسطين والثورة الاسلامية الفتية . . .

كيف كان ذلك ؟ :

لبنان وفلسطين

لقد تمكن الحاج قاسم سليماني . . انطلاقا من معتقده الراسخ بشعار ومذهب الامام الخميني القائل اليوم ايران وغداً فلسطين . . . . . ان يتحرك سريعاً بروحه ونفسه وتفكيره واتصالاته وصداقاته ان يحجز لنفسه مقعدا متقدما في صف القيادة اللبنانية المقاومة التي قررت تحرير التراب اللبناني ومقارعة العدو الصهيوني في لبنان وامتداداً في فلسطين المحتلة . . .

١ ــ فكانت اولى نتائج حضوره ان حول القتال في لبنان من قتال فردي الى معركة تحرير جماعية تتجاوز الجولات الفردية البطولية المهمة وكذلك المجموعات والقوى الجهادية المتناثرة . . .

٢ ـ ثانيا قام بتوسيع اطار الحرب ضد العدو لتصبح اكثر شمولية من الساحة اللبنانية ضاماً بذلك سورية وايران اليها كشريكين فاعلين واساسيين وضرورين في الحرب التحررية الكبرى المنطلقة من الساحة اللبنانية ما احدث عمليا تحولا كبيرا في التكتيكات والاستراتيجيات وفي عمليات اللوجستيك والقراءات السياسية والفكرية لنوعية وجوهر الحرب المفتوحة مع العدو الصهيوني . .

٣ ـ وهكذا تحول القتال هناك من مجرد جهاد لبناني لتحرير الارض والانسان الى صراع عروبي صهيوني حول مصير الامة العربية من خلال ادخال سورية كطرف شريك وداعم فاعل ، والى صراع اسلامي صهيوني لاجل تقديم نموذج اسلامي تقدمي للصراع من خلال اضافة ايران كطرف شريك وفاعل وداعم اساسي . . . ما وسع مسرح العمليات المناهضة للعدوان الصهيوني ليس فقط بالجغرافيا العسكرية بل وبالجغرافيا الفكرية والعقائدية والمجتمعية وكذلك خلط دماء كل الملل

والنحل والاقوام المتواجدة على امتداد المشرق الكبير . . .

سورية والعراق .

في هذه الاثناء تحركت قوى العدوان العالمي والهيمنة الدولية بقيادة الشيطان الاكبر امريكا بعمل مضاد ضد نهضة وتحرر شعوب المنطقة وفي محاولة لايقاف ما حصل من تحولات في المجال الذي ذكرناه آنفاً ما دفع المستعمر للقيام بهجوم كوني واسع النطاق على الارض السورية لايقاف هذا التحول التحرري بالقوة العسكرية الغاشمة . . .

فماذا فعل الحاج قاسم هنا . . . ؟

١ ـ لم يقع في فخ ما سمي بالربيع العربي ، كما لم يبق متسمراً عند الفكر النمطي الديني الذي كان قد قسم العالم في لحظة ما الى فسطاطين اما ان تكون " جهاديا" او "كافرا" . . . !

بل انتقل بقوة الى احداث تحولات في تكتيكات قوة القدس واستراتيجياتها على الشكل التالي :

٢ ـ توسيع نطاق جبهة الحرب ضد العدو الذي تسلل الى الجبهة الخلفية (الداخلية) لنا تحت عناوين دينية وطائفية ، من خلال ضخ دماء جديدة في الصراع موحداً بذلك ساحات النضال القطرية والقومية والعالمية فكانت فكرة الوية الحيدريين والفاطميين والزينبيين وتاليا الى جيش كبير تحت قيادة الحرس الثوري الايراني الذي زج به في الساحة السورية بالتعاون الوثيق مع حزب الله دفاعا عن المعتدى عليه وهي الدولة الوطنية السورية وشعبها المظلوم دون ان يطالبها بتغيير عقيدتها العلمانية منعا لحصول اي شرخ داخل الجبهة الداخلية ، وتوسعة للفكر التحرري النضالي القاضي بوحدة الانسانية والمظلومية التاريخية ضد نظام الهيمنة الدولي . . .

٣ ـ ثم ذهب الى ابعد من ذلك عندما قرر كسر قواعد اللعبة والاشتباك وموازين الحرب واليلام الدوليين ، من خلال اتخاذ قرار غاية في الفطنة والالمعية والاهمية عندما اتجه الى موسكو مزيلا عنها غبار الترديد والشك

في احقية مكافحة الارهاب التكفيري على الساحة السورية وضرورة الانخراط الميداني لروسيا في هذه المعركة لقلب الموازين الدولية لصالح المظلوم وهذا ما حدث بالفعل . . .

نحو ثلاث ساعات من الحوار المعمق مع شخص الرئيس بوتين كانت كفيلة بقلب موازين القوى في سورية بشكل كبير ، بعدما جعل الرئيس الروسي يقتنع تماما بان معركة الدفاع عن اسوار موسكو غدا وابواب الكرملين من تمددالناتو انما يتطلب وقف زحف العدو الغربي في سورية وكسر هيبته واحلامه على بوابات دمشق الشام وهذا هو ما حصل بالفعل والفضل فيه لشخص ومدرسة الحاج قاسم سليماني . . .

٤ ـ اضافة الى ما تقدم ودفاعا عن وحدة الهوية السورية ومنعا لاختراقات اقليمية خبيثة ، قرر الحاج قاسم وبالتعاون المكثف مع شخص الاسد من تحشيد اكبر عدد ممكن من القطاعات الشعبية في القتال وذلك بطريقة غير تقليدية ومن خارج القتال النظامي فكانت فكرة التقاط المقاتل الضائع او التائه او المعرض للتيه في الحروب وتسليمه البندقية الهادفة ، وهكذا كانت فكرة ومشروع القوات الرديفة التي حصنت المجتمع السوري وقوت وعززت الجبهة القتالية فيه في الوقت نفسه . . .

٥ـ وهكذا كان الامر في العراق عندما تمكنت مدرسة الحاج قاسم من خلط دماء الايرانيين واللبنانيين مع اخوتهم في العقيدة والدين والقيم السامية من تشكيل منظومة قتالية جديدة تفوق تصور العدو الذي كان قد ظن انه سيقاتل في غزوة العراق فئة من العراقيين دون غيرها فيعزلها ويحاصرها حسب ظنه ببحر عربي او مذهبي فاذا بتلاحم الفكر المرجعي الديني (صحيح العراقي شكلاً واسماً) لكنه العابر للعراق والملتحم جوهراً مع مدرسة الحاج قاسم سليماني التي اساسا كانت قد تعززت وترسخت واشتد عودها في كل من لبنان وسورية لتصبح فاعلة ونافذة في العراق لتمنع تقسيمه جغرافيا وضرب المشروع

الفتنوي فيه مذهبيا او سياسياً . .

اليمن الثائر

من هرمز الى باب المندب
ومن البصرة الى بنت جبيل
وصولاً الى مابعد مابعد حيفا . . . !

كان الحاج قاسم سليماني شديد الاعتقاد مثل امامه باحقية ومظلومية الشعب اليمني الكبير تجاه عدوانية النظام الوهابي التابع للصهاينة الدوليين والاسرائيليين . . .

لذلك كان منذ اليوم الاول مع الثورة اليمنية الحوثية الجديدة ، لابل انه كان من رعاتها منذ كانت في صعدة مطاردة ومحاربة سواء في مغاراتها وندواتها الاولى المصغرة او في المدن الكبرى من قبل حكام صنعاء الانتهازيين واتباع الوهابية السياسية التي حكمت اليمن في عهد علي عبد الله صالح . . .

لذلك تراه كان من اول المتحمسين والمستقبلين بحفاوة لدخول الحوثيين الى صنعاء برايت النصر والقائلين بضرورة التلاحم مع الثورة الجديدة وكانت بصماته واضحة في المشهد اليمني الجديد ودعوته المبكرة للقائد المناضل والزعيم الثوري البطل صالح الصماد على راس وفد كبير الى طهران حيث اعلن وقتها الانفتاح الكامل للثورة الاسلامية الاسلامية على حكام اليمن الجدد ، وعقد الاتفاقيات طويلة الامد وذات الطابع الاستراتيجي معهم . . .

وما ان اعلنت الحرب السعودية الامريكية الاسرائيلية عليهم حتى سارع رائد التغيير الاسلامي الحاج قاسم سليماني في ارسال طائرة انقاذ ومساندة خاصة الى اليمن مع وفد تضامني على رأسه احد كبار مساعديه القائد رستم قاسمي الذي جلس الى جانب الطيار وهو يلح عليه بضرورة النزول في مطار صنعاء رغم القصف الشديد والمكثف والمتكرر والذي منع للاسف بالطبع نزول الطائرة في حينها . . .

لكنه الموقف المبدأي والثوري الذي سجلته مدرسة الحاج قاسم مع اليمن المنصور بالله الحوثي والذي

سيظل خالداً ويكتب بالذهب والدم حيث الدعم والاسناد القوي الذي لم يتوقف رغم كل العوائق المحيطة و التي تزال مستمرة . . .

لكن الحاج قاسم لم يستسلم وكما تمكن في الساحات الاخرى ونجح فقد نجح في اليمن ايضاً وكما كانت له اليد الطولى والبيضاء في نقل تكنولوجيا السلاح والقتال المتمرس الحديث الى غزة هاشم كانت له اضعاف ذلك الى يمن الصمود والتصدي لمشاريع الوهبنة والظلامية التكفيرية التي تكسرت امام مبدأية وصمود القادة اليمنيين الجدد والذين اثبتوا انهم انصار الله واحبائه عن جد وحقيقة . . .

ومع مرور الايام والسنوات واختلاط الدماء في الساحات المختلفة صار اللون الاحمر القاني المقاوم قد تهندس ليصبح نافذا في اعماق جبهة العدو مجنحاً كما هي الصواريخ المجنحة التي تهشم وتشظي جسم العدو وتجعله هشيما تذروه الرياح

ومحاصرا جغرافيا من كل حدب وصوب تتنافس فيه القوى الحية في الامة من انصار الله والحشد الشعبي والجيش العربي السورية والحرس الثوري الايراني وصولا الى المقاومة الفلسطينية العزيزة والشريفة في غزة ، في توجيه قذائفها وصواريخها وجهدها وجهادها ضد العدو الصهيوني المحتل المرتبط بالامبريالية العالمية بشياطينها الكبار والصغار . . .

من افغانستان الى العراق ومن البحر المتوسط الى البحر الاحمر ، مروراً بكل مدن ارض السواد . . .

هذه هي مدرسة الحاج قاسم سليماني الخمينية الجذور الخامنائية الفروع والتي تستعد لتثمر في صراع القوة في جغرافيا اخر الزمان قسطا وعدالة في زمن قائم ال محمد .

وحدة دم ووحدة ساحات وبوصلة مشتركة تشير الى القدس تماماً . . .

وتنتظر ساعة حلول البطشة الكبرى انا منتقمون

بعدنا طببين قولوا الله

فِي رِحَابِ
الفِكْرُ المُقَاوِم

مرتكزات الحجّ الإبراهيمي
قراءة في نظر الإمام الخميني رحمه الله
لفريضة الحجّ

❖ العلامة السيد محمّد مهدي الموسوي [1]

(١) أستاذ وباحث حوزة النجف الاشرف.

حقيقة البعد المعنويّ

لا شكّ أنّ الحجّ واجبٌ على كلّ مكلّف جامع للشرائط المذكورة في كتب الفقهاء، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنّة القطعيّة. وهو ركنٌ من أركان الدين، ووجوبه من الضروريات، وتركه مع الاعتراف بثبوته معصية كبيرة. كما أنّ إنكار أصل الفريضة، إذا لم يكن مستنداً إلى شبهة كفرٌ؛ قال اللّه تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1].

وروى الشيخ الكليني عَنْ ذُرَيحٍ الْمُحَارِبِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «مَنْ مَاتَ ولَمْ يَحُجَّ حَجَّةَ الإِسْلَامِ لَمْ يَمْنَعْه مِنْ ذَلِكَ حَاجَةٌ تُجْحِفُ بِه أَوْ مَرَضٌ لَا يُطِيقُ فِيه الْحَجَّ أَوْ سُلْطَانٌ يَمْنَعُه فَلْيَمُتْ ـ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً»[2].

غير أنّ ما نبغيه هنا هو بيان أنّ العباداتِ جميعَها صلاةً، وصوماً، وحجّاً وغيرها حاكيةٌ عن بعدين:

الأوّل: البعد الذي يمثّله ويحكي عنه الجانبُ الفقهي، وهو أنْ تتوفّر في العبادة جميعُ الشرائطِ والأجزاء المعتبرة فيها من قبل الشرع، فيحكمون ـ مثلاً ـ بصحّة الصلاة متى ما توفّرت فيها شرائطها وأجزاؤها، فإنْ أتى المكلّف بذلك تحققت الصلاة، وحكم الفقيه بصحتها.

وهذا البعدُ هو ما يرفده الفقهاء في أبحاثهم، فيبحثون في الفقه في: ما هي الشرائط والأجزاء المعتبرة في العبادة؟، وما هو الدليل على

إثباتهما ؟ أو إثبات مانعية بعض الأمور كالقهقهة في الصلاة ؟ ، ويصرف الفقيه كلّ اهتمامه في معالجة هذا الجانب .

الثاني : البعد المعنويّ ، وهو ما يمثّل غاية العبادة ، وهدفها المنشود ، وروحها وجوهرها وحقيقتها ، وهو أنْ يستشعر العبدُ في مقام تطبيق البعد الأوّل الوقوف بيد المولى ، « والمثول بحضرته ، ومشاهدة جمال المحبوب ، وكأنّ القائل قد غاب عن وعيه »[٣] وعرج بروحه الى بارئها .

قال الإمام قدس سره « الآن يجب على حجّاج بيت الله الحرام ، وهم يهاجرون الى الله ورسوله أنْ لا شيء وراءهم سوى المحبوب الحقيقي ، بل لاشيء غيره في الداخل والخارج »[٤] .

وبهذا البُعد يشار الى الصلاة بأنّها معراج المؤمن ، وبه يصدق قول أمير المؤمنين عليه السلام : « فَهُمْ والْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ ، وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ ، قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ »[٥] .

وعن أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ قَالَ رَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام يُصَلِّي فَسَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ أَحَدِ مَنْكِبَيْهِ ، قَالَ فَلَمْ يُسَوِّهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ ، قَالَ : فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : « وَيْحَكَ أَتَدْرِي بَيْنَ يَدَيْ مَنْ كُنْتُ ! . . . الحديثِ »[٦] .

فهذا البُعدُ من العبادة هو العبادة الحقيقيّة ، ولذا يعبّر الإمامُ قدس سره عن التلبيات « إنَّ التلبيات الحقيقيّة المتكررة هي التي تنطلق من أناس سمعوا نداء الحقّ بآذان قلوبهم ، ويلبون دعوة الله تعالى باسمه الجامع (الله)[٧] »[٨] .

فكأنّ غير ذلك تلبية صوريّة فمن قال : لبيّك غافلاً عن هذا المعنى فقد حقق البعد الفقهيّ من وجوب التلبية ، دون البعد المعنويّ منها . ولذا تجدُ هذا المعنى حاضراً في سلوك أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ، فعن مالك بن أنس واصفاً إمامنا جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال : وَ لَقَدْ حَجَجْتُ مَعَهُ سَنَةً ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ عِنْدَ الْإِحْرَامِ كَانَ كُلَّمَا هَمَّ بِالتَّلْبِيَةِ انْقَطَعَ

الصَّوْتُ فِي حَلْقِهِ ، وَ كَادَ أَنْ يَخِرَّ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَقُلْتُ : قُلْ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ أَنْ تَقُولَ ، فَقَالَ : « يَا ابْنَ أَبِي عَامِرٍ كَيْفَ أَجْسُرُ أَنْ أَقُولَ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، وَ أَخْشَى أَنْ يَقُولَ تَعَالَى لِي لَا لَبَّيْكَ وَ لَا سَعْدَيْكَ »[٩] .

فليست الغاية والعلّة من الحجّ مجرّد الوصول الى المناسك المقررة فقهيّاً ، وأداء العبادات فيها ، بل علّته وملاكه ما قاله الإمام الرضا عليه السلام : « أَنَّ عِلَّةَ الحجّ الْوِفَادَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى »[١٠] ، فإنْ كانت أعمال الحجّ في بعدها الأوّل ـ بما تمثّله من شرائط وأجزاء وأقوال وأفعال ومواقف في عرفات والمزدلفة ومنى وطوافات وسعي ـ تحققُ هذا المعنى فقد حصلت غاية الحجّ ، والمصلحة المتوخّاة منه ، وإلا فلا .

والى هذين البعدين تشير الرواية المروية عن الْعَالِمِ الْجَلِيلِ السَّيِّد عَبْد اللَّهِ سِبْط الْمُحَدِّثِ الْجَزَائِرِيِّ فِي شَرْحِ النُّخْبَةِ ، قَالَ وَجَدْتُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ أُوَثِّقُهَا بِخَطِّ بَعْضِ الْمَشَايِخِ الَّذِينَ عَاصَرْنَاهُمْ مُرْسَلًا : أَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ مَوْلَانَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام مِنَ الحجّ اسْتَقْبَلَهُ الشَّبْلِيّ ، فسأله الإمامُ أسئلةً عديدةً عن الحجّ ، منها أنه قَالَ عليه السلام لَهُ : « فَعِنْدَ مَا ذَبَحْتَ هَدْيَكَ نَوَيْتَ أَنَّكَ ذَبَحْتَ حَنْجَرَةَ الطَّمَعِ بِمَا تَمَسَّكْتَ بِهِ مِنْ حَقِيقَةِ الْوَرَعِ ، وَ أَنَّكَ اتَّبَعْتَ سُنَّةَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِذَبْحِ وَلَدِهِ ، وَ ثَمَرَةِ فُؤَادِهِ ، وَ رَيْحَانِ قَلْبِهِ ، وَ حَاجَّهُ سُنَّتُهُ لِمَنْ بَعْدَهُ ، وَ قَرَّبَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ خَلْفَهُ ؟ » . قَالَ : لَا . قَالَ : « فَعِنْدَ مَا رَجَعْتَ إِلَى مَكَّةَ وَ طُفْتَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ نَوَيْتَ أَنَّكَ أَفَضْتَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَ رَجَعْتَ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَ تَمَسَّكْتَ بِوُدِّهِ ، وَ أَدَّيْتَ فَرَائِضَهُ ، وَ تَقَرَّبْتَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؟ » . قَالَ : لَا . قَالَ لَهُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ : « فَمَا وَصَلْتَ مِنًى ، وَ لَا رَمَيْتَ الْجِمَارَ ، وَ لَا حَلَقْتَ رَأْسَكَ ، وَ لَا أَدَّيْتَ نُسُكَكَ ، وَ لَا صَلَّيْتَ فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ ، وَ لَا طُفْتَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ ، وَ لَا تَقَرَّبْتَ ، ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَحُجَّ »[١١] .

فترى كلام الشبلي مردداً بين « نعم » ، و « لا » ، إذ حينما يُسأل عمّا يمثّل البُعد الفقهي يجيب بنعم ،

وحينما يُسأل عن البعد المعنويّ يجيب بلا ، ونرى جواب الإمام في نهاية المطاف : « فَمَا وَصَلْتَ مِنًى ، وَ لَا رَمَيْتَ الْجِمَارَ ، وَ لَا حَلَقْتَ رَأْسَكَ ، وَ لَا أَدَّيْتَ نُسُكَكَ ، وَ لَا صَلَّيْتَ فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ ، وَ لَا طُفْتَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ ، وَ لَا تَقَرَّبْتَ ، ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَحُجَّ » ، بينما لو كنّا سألنا الفقيه لقال : وصلت مِنى ، ورميت الجِمار ، و حلقت رأسك ، وأدّيت نسكك ، وصلّيت فِي مسجِدِ الخيفِ ، وطفت طواف الإفاضةِ ، و تقرّبت ، فلا ترجِع ؛ فإنّك قد حججتَ .

ومراد الإمام عليه السلام أنّه لم يحصل البُعد المعنويّ الذي هو علّة الحجّ ، وإنْ كان الحجّ صحيحاً من الناحية الفقهيّة .

وهو مراد الإمام قدس سره بقوله : « لا شكّ أنّ الحجّ الذي يفتقد للروح والخالي من التحرّك والثورة . . الحجّ الذي لا يتضمّن البراءة ، الحجّ الخالي من الوحدة ، والحجّ الذي لا يقود إلى هدم الكفر والشرك ليس حجّاً »[١٢] .

« إنّ أعظم آلام المجتمعات الإسلاميّة هي أنّها لم تدرك لحدّ الآن الفلسفة الحقيقية للكثير من الأحكام الإلهيّة ، وأنّ الحجّ - ورغم كلّ الأسرار والعظمة الكامنة فيه ــ لا زال باقياً بصورة عبادة جافّة وحركات غير مجدية ، ولا مثمرة »[١٣] .

أخطار غياب البعد المعنويّ

لمّا كان هذا الجانب هو حقيقة الحجّ كان تركيز الإمام قدس سره في توجيهاته للحجّاج عليه ، و قد ذكر رحمه الله عدّة مخاطر لغياب هذا البعد في أداء شعيرة الحجّ ، يمكن تلخيصها بـ :

١ـ انتفاء الهدف الحقيقي من العبادة :

إنّ البعد المعنويّ يشكّل الهدف و الغاية الأسمى من أيِّ عمل عباديّ ، و منه الحجّ باعتباره طريقاً من الطرق المباشرة للتقرّب و الاتصال بالخالق ، وبفقدانه يُعدّ العمل خاليا من أهدافه الحقيقية ليتحوّل الى حركات يؤدّيها

العبـدُ دون استشـعار بمـا وراء هـذه الحركات و الغاية المرجوّة منهـا ، و لـذا ينبّه الإمام ﷺ على خطورة غيـاب هـذا البعد في أداء مناسـك الحـج ، فيقـول : « لا شكّ أنّ الحجّ الذي يفتقـد للـروح ، والخالي من التحرّك والثورة . . . . الحجّ الذي لا يتضمّن البراءة ، الحجّ الخـالي من الوحدة ، الحـجّ الـذي لا يقـود إلـى هدم الكفـر والشـرك لـيس حجّـاً »[١٤] . وقد تقدّم .

سؤال وجوابه :

قد يتبادر الى الـذهن سـؤالٌ : أنّـه لو كان الذي يمثّـل العبـادة فـي جانبهـا الحقيقـيّ هـو البعـدُ المعنـويّ ، فلمـاذا يحكم الفقهاءُ بسقوط التكليف ، وفـراغ ذمّـة المكلّـف بمجـرّد الإتيـان بالبعـدِ الأوّل للعبادة ؟ مما يـدلّ علـى أنّ هـذا البعـد محقـقٌ للمصـلحة مـن تشـريع الصلاة ومسـتوفٍ لملاكهـا ، وإلا كيـف يُكتفى به ؟ .

فيجاب : إنّ هـذا يكشـفُ عـن أنّ العبـادة تعبّـر عـن مصـلحةٍ ذاتِ مراتـبَ متعددةٍ ، والبعد الأوّل يحقق المصـلحة بمرتبة منها ، فمن جـاء بـالتكليف فهـو ملتزم بأحكـامِ المـولى ، ولـيس متمـرّداً على أوامره ، فليس حاله حال العاصي ، فلذا يقبل المولى منه هذا المستوى من الطاعة ـ رحمة منه ـ وتكريمـاً لـه ، وإنْ فاتـــه القســـطُ الأوفـــرُ مـــن المـــلاك والمصلحة ؛ « لأنّ كرمه تعالى عظيم ، ورحمته واسعة ؛ لأنّه سـبحانه لا يغلـق بابه عمّنْ أَمّهُ ، ولا يُعـرض عمّـنْ أقبـل عليـه ، ولـو ـ بالقليـل ـ كيـف ؟ وهـو سـبحانه يقـول فـي بعـض وحيـه إلـى بعـض أنبيائـه : مـن تقـدّم إلـيّ شـبراً تقدّمت منه ذراعاً ، ومن تقدّم إليّ ذراعاً تقدّمت منـه باعـاً ، ومـن جـاءني مشـياً جئته هرولة »[١٥] .

وأورد الشيخ الطوسي في المصباح قولـه عليه السلام : « وَ يَـا مَـنْ يُعْطِـي الْكَثِيـرَ بِالْقَلِيـلِ ، وَ يَـا مَـنْ أَعْطَـى الْكَثِيـرَ بِالْقَلِيلِ ، وَ يَا مَنْ أَعْطَى مَنْ سَأَلَهُ تَحَنُّناً مِنْهُ وَ رَحْمَةً ، وَ يَـا مَـنْ أَعْطَـى مَـنْ لَـمْ يَسْأَلْهُ وَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِـهِ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَ كَرَماً »[١٦] .

وهذه المرتبة هي مرتبة الأنبياء والأوصياء الأولياء، وأمّا عامّة عباد الله فالباب مفتوح لهم، يدعوهم الصالحون لدخوله، في مقام السير والسلوك الى الله تعالى.

٢ـ فقدان الاستشعار بعظمة المحضر أمام الله، والتعلّق بغيره:

يعدّ البعد المعنويّ واستحضاره لدى العبد مقدّمة لاستشعاره بعظمة الله تعالى، و جلال الوقوف في محضر قدسه، مما يخلق عنده فيما بعدُ تعلّقاً قلبيّاً بذات الله المقدّسة و ترك الاعتماد على غيره؛ لأنه مدرك أنّ الأمر بيده سبحانه و تعالى، و أنّ قدرته تفوق كلّ قدرة، و رحمته تعلو على كلّ رحمة، إلا أنّ غياب البعد المعنويّ عن المناسك العبادية و منها الحجّ لا يخلّص الحاج من التعلّق بغيره، و هذا من أشدّ المخاطر فهو في ضيافة الله و قلبه يتعلّق بغيره، لذلك نبّه الإمام لهذا الأمر داعياً الحجاج للتوجّه و التعلّق بذاته، واستشعار العبد بأنّه في محضر القدس، فقال في هذا الصدد: « إنّني يحدوني الأمل أنْ يلتفت الحجّاج الأعزاء ـ أيّدهم الله تعالى ـ وينبّهوا أنفسهم وزملاءهم حتى لا يلوّثوا هذه العبادة الإلهيّة العظيمة بالمعصية. وعندما يقفون في المواقيت الإلهيّة والمقامات المقدّسة في جوار بيت الله تعالى المبارك ينبغي أنْ يراعوا آداب الحضور في محضر الله المقدّس، وأنْ لا تتعلّق قلوبُهم بأيّ شيء غير الحقّ، وتتحرر من كلّ ما هو غير حبيب، وان تتنوّر بأنوار التجليات الإلهيّة حتى تتجمّل هذه الأعمال ومناسك السير الى الله بمحتوى الحجّ الإبراهيمي، ومن ثمّ الحجّ المحمّديّ، وان يعودوا الى أوطانهم سالمين من أيّام الأنانيّة، يحملون معهم زاد معرفة الحقّ وعشق المحبوب، وان يجلبوا لأصدقائهم الهدايا الأبدية الباقية بدل الهدايا المادّيّة الفانية »[١٧].

٣ ــ فقدان الأبعاد الإجتماعية والسياسية :

الحجّ كما يعتمد في حقيقته على استحضار هذا البعد المعنويّ ، إلا أنّ له أبعاداً أخرى كالبعد كالسياسي و الاجتماعي ، و بهذه الأركان الثلاثة يصبح عمل المكلّف تامّاً ، قد أدّى الشعيرة الإلهيّة على الوجه المرجوّ من العبادة ، إلا أنّ هذين البعدين ــ أعني السياسي و الاجتماعي ــ على صلة وثيقة بالبعد المعنويّ ، ولا يمكن أن يتّجه العبد للبعد السياسي ــ مثلاً ــ دون أن يكون قد استشعر في لحظة سابقة البعد المعنويّ ، و إذا أمكن اطلاق وصف على هذا البعد فأقربُ ما يقال فيه أنه قلبُ العمل ، و من دونه لا تتحرك بقية الأعضاء المرتبطة به ، فيؤكّد الإمام ﷺ على ذلك .

« و لو أغفلت الجوانب المعنويّة ، فلا تتصوّروا الخلاص من مخالب شيطان النفس . ولا تستطيعون الجهاد في سبيل الله والدفاع عن حريم الله ما دمتم في قيود أنفسكم وأهوائكم النفسية ، . . . وليعلم المسلمون أنّهم ما لم تحصل عندهم درجة واحدة من هذه التحوّلات فلن يدعهم شيطان النفس الأمّارة ، وشياطين الخارج أن يفكّروا بالأمّة الإسلاميّة والمظلومين في أنحاء العالم »[١٨] .

« فلا يتحقق البعد السياسيّ والاجتماعيّ للحجّ إلّا بتحقق بعده المعنويّ والإلهي . فيجب أن تكون تلبياتكم إجابة لدعوة الحقّ تعالى ، وأنتم مُحرمون للوصول إلى أعتاب محضر الحقّ تعالى ، وهاجروا نحو الله جلَّ وعَلا بتلبياتكم من أجل الحقّ بنفي الشرك بجميع مراحله ، ومن (النفس) التي هي المنشأ الكبير للشرك . ولو أغفلت الجوانب المعنويّة ، فلا تتصوّروا الخلاص من مخالب شيطان النفس . ولا تستطيعون الجهاد في سبيل الله والدفاع عن حريم الله ما دمتم في قيود أنفسكم وأهوائكم النفسية »[١٩] .

ومن هذا الفهم الحقيقي لروح الحكم الشرعي ينطلق الإمام ﷺ في

فهم كلّ منسك من مناسك الحجّ، فيقول: « إنّ هذا المؤتمر الزاخر بالسياسة، والذي يقام تلبية لدعوة إبراهيم عليه السلام[٢٠] ومحمّد صلى الله عليه وآله فيجتمع الناس من كلّ فج عميق إنّما هو لمصالح الناس والقيام بالقسط، وتحطيم الأوثان من قبل إبراهيم ومحمّد وتحطيم الطاغوت وإزالة فرعون من قبل موسى.

وأيُّ وثنٍ يصل الى درجة الشيطان الأكبر، والأوثان والطواغيت المستعمرة للعالم، التي تدعو كافّة المستضعفين الى السجود لهم وتمجيدهم، ويعتبرون جميع عباد الله الأحرار عبيداً مطيعين لهم؟ »[٢١].

ومن هنا يتخذ الإمام قدس سره هذا التلاحم ما بين الأبعاد ليصبح أداء المناسك في كلّ أجزاءه عمل معنويا و سياسيا يعبّر الإنسان فيه عن رفضه لكلّ مظلمة و أذى، اتصال بين العبد ربّه و رفضا لكلّ الأرباب الظالمة فالسعي و الوقوف بعرفات... لحظات يتجرّد الإنسان من علائقه عبر الاستشعار بالبعد المعنويّ ليصل به هذا الاستشعار الى أبعاد أخرى، و منها السياسيّة، فيقول الإمام ـ أيضا ـ بهذا الصدد:

« وعند طواف بيت الله الحرام ـ مظهر العشق الحقيقي ـ أفرغوا قلوبكم من كلّ شيء، وطهّروا أرواحكم من خوف غير الباري جلّ وعلا، والى جانب العشق الحقيقي تبّرؤا من الأوثان ـ كبيرها وصغيرها ـ والطواغيت وأذنابهم كما تبّرأ الله ورسوله منهم، وجميع أحرار العالم بريئون من ذلك.

وبايعوا الله أثناء لمس « الحجر الأسود » على أن تكونوا أعداءاً لأعدائه، وأعداء رسوله و الصلحاء والأحرار، وألا ترضخوا لهم أبداً، ولا تهنوا وتذلّوا؛ فإنّ أعداء الله وعلى رأسهم الشيطان الأكبر أذلّاء، برغم تفوّقهم في آلات القتل والقمع وارتكاب الجرائم.

وعند السعي بين الصفا والمروة اسعوا بإخلاص لإدراك المحبوب، حيث تنقطع بوجوده جميع الموجودات

الدنيويـــة ، وتنهـــار كـــلّ الشـــكوك والالتباس ، وتـزول كـلّ ألـوان الخـوف الحيواني ، وتنفصم عرى كافّة العلائـق المادّيـة ، وتتفـتح الحريـات ، وتـتحطّم أغـــلال الشـــيطان والطـــاغوت التـــي يأسرون بها عباد الله .

وتوجّهـــوا الـــى المشـــعر الحـــرام وعرفات بحالة من الخشوع والعرفـان ، وازدادوا فـي كـلّ موقـف يقينـاً بتحقـق الوعـــد الإلهـــي حـــول حكومـــة المستضعفين ، وتفكّروا فـي آيـات اللـه بســكون ووقــار ، وفكّــروا فــي إنقــاذ المحرومين والمستضعفين من مخالـب الاسـتكبار العـالمي ، واطلبـوا التوفيـق من الله تعالى لمعرفة طرق النجـاة فـي تلك المواقف الكريمة .

ثم اذهبوا الى منى واحصلوا علـى آمالكم المشـروعة المتمثّلـة بالتضـحية بالغـالي والنفـيس مـن أجـل المحبـوب المطلق .

واعلموا بأنكم لا تبلغون المحبوب المطلـق إلا باجتيـاز مـا تصـبو إليـه أنفسكم ، وتتجسد ذروة ذلك فـي حـبِّ النفس ، ثمّ يتلوه حبّ الـدنيا ، وارجمـوا الشيطان وأنتم علـى هـذه الحـال ليفـرّ مولياً عنكم . وتابعوا رجم الشيطان فـي الأماكن المختلفة طبقاً للأوامر الإلهيّة كي لا تبقى له ولأتباعه باقية »[٢٢] .

التلبية نفي الشريك و اتصال بالخالق

التلبيـة عمـل ذو بعـدين فهـي أنْ تستجيب لنداء الله و تلبيه وتهاجر اليه ، و في الوقت نفسه فإنك تنفي الاستجابة لغيـره وتـرفض كـلّ ربٍّ و كـل ظـالم و جبار ، ففي وصفه ﷺ للتلبيـة يـرى أنّـه فـي فريضـة الحـجّ لمـا تقـال كلمـة « لبيك » بحقّ ، وتكون الهجرة الى الله تعالى ببركة إبراهيم ومحمّد ، فإنّ ذلـك بمنزلـة كلمـة « كـلا » لكافّـة الأوثـان والطواغيت والشياطين .

وأيُّ وثـنٍ أكبـرُ مـن الشـيطان الأكبـر المتمثّـل بأمريكـا المسـتعمرة وروسيا الملحدة والظالمة ؟

وأيُّ طـاغوتٍ أكبـر مـن طواغيـت زماننا ؟

عند قولكم « لبيك » قولوا « كلا » لكافّة الأوثان والطواغيت[٢٣] .

. في حين نجد المتسلّطين على رؤوس المسلمين يقولون في كلِّ لحظةٍ للشيطانِ : لبّيك ، وأمرك مولاي ، وكلّهم يتوسّل بأمريكا وإسرائيل والغرب الصليبيين ، ويخطبُ ودّهم ويأمل رضاهم ، إنّهم يعلمون جيّداً بأنّ الحرم اليوم حرمٌ ، ولكن ليس للناس ، وإنّما لأميركا ! وانّ كلّ من توجّه إلى الكعبة ولم يقلّ لبيك لأميركا سيتمّ الانتقام منه .

التلبيةُ تُتبعُ بنفي الشريك :

قال الإمام ﷺ : « ويتبعونها بنفي الشريك بالمعنى المطلق[٢٤] . وليس الشريك في الإلوهيّة فقط ، إضافة إلى أنّ نفي الشريك يشمل ـ في نظر أهل المعرفة ـ كلّ المراتب حتى فناء العالم ، ويحوي كلّ الفقرات (الاحتياطية) و (الاستحبابية) مثل « الحمد لك والنعمة لك » (الحمد) بالذات المقدّسة وكذلك النعمة ، وينفون الشريك . وهذا عند أهل المعرفة غاية التوحيد . بمعنى أنَّ أيّ حمدٍ أو نعمة تتحقق في عالم الوجود هي حمد الله ونعمته من دون شريك له . ويجري هذا الهدف الأعلى في كلّ موقف ، ومشعر ، ووقوف ، وحركة ، وسكون ، وعمل . أمّا غير هذا فهو الشرك بالمعنى الأعمّ ، حيث إنّنا عمي القلوب كلّنا مبتلون به »[٢٥] .

و بيان قوله ﷺ يتوقّف على معرفة أمرين :

الأمر الأوّل : ما المقصود من الفقرات الاحتياطية الاستحبابية في التلبية ؟ .

أقول : إنّ الواجب في التلبية هو أنْ يقول الحاجُّ أو المعتمر أربع مرّات : « لبيّك » ، ولكنّ الفقهاء اختلفوا في كيفيتها على أقوال :

أحدها : أن يقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

الثاني : أن يقول ــ بعد العبارة المذكورة ــ : « إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

الثالث: أن يقول: « لبيك اللهم لبيك، لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، لبيك ».

الرابع: كالثالث، إلا أنه يقول: « إنّ الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك، لبيك »، بتقديم لفظ: والملك

على لفظ: لك[٢٦].

والإمام ﷺ يرى كفاية الصّورة الأولى قائلاً: « فلو اكتفى بذلك كان محرماً، وصحّ إحرامه، والأحوط الأولى أن يقول عقيب ما تقدّم: إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك، وأحوط منه أن يقول بعد ذلك: لبيك اللهم لبيك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك »[٢٧]. فهذا هو مراده من الاحتياطية والإستحبابيّة.

الأمر الثاني: إنّ الواجب في التلبيات مثلما يتمثّل بالإيجاب يتمثّل بالنفي، وهو قوله « لبيّك لا شريك لك ». و البعد المعنويّ مثلما هو متوقّف على الجانب الإيجابي فيه « لبيّك اللهم لبيك »، كذلك هو متوقّف على جانبه السلبيّ، بنفي شريك الباري، وهذا هو غاية التوحيد، بمعنى الاعتراف بأنّ أيّ نعمة تتحقق في عالم الإمكان فهي من الله لا شريك معه، وأمّا الاعتقاد بغير هذا فهو الشرك، ولا يخلو منه الإنسان غالباً، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٢٨].

الهوامش:

[١] سورة آل عمران ٣: ٩٧.

[٢] الكافي ٤: ٢٦٨/ ١.

[٣] صحيفة الإمام ١٩: ٢٧. يوم ٢٨/ ذو القعدة/١٤٠٤هـ

[٤] صحيفة الإمام ٢٠: ٨٠. يوم ٥/ ذو الحجّة/١٤٠٨هـ

[٥] أورده الرضيّ في نهج البلاغة ٢: ١٦٠ ضمن الخطبة رقم ١٩٣.

[٦] أورده الصدوق في علل الشرائع ١: ٨/٢٣٢، والطوسيّ في التهذيب ٢: ١٤١٥/٣٤٢.

[٧] المراد بالجامع ما يجتمع عليه الحجّاج من أيّ بلدٍ كانوا، وبأيّ لغة نطقوا.

[٨] صحيفة الإمام ١٩: ٢٨. يوم ٢٨/ذو القعدة/١٤٠٤هـ

[٩] أورده الصدوق في علل الشرائع ١: ٤/٢٣٥.

[١٠] أورده الصدوق في علل الشرائع ٢: ٥/٤٠٤.

[١١] أورده النـــــوريّ في مســـــــتدركه ١٠: ١١٧٧٠/١٦٧. والرواية طويلة اقتطعنا موضع الحاجة منها.

[١٢] صـــحيفة الإمـــام ٢١: ٧٦. يـــوم ٥/ذو الحجّة/١٤٠٨هـ

[١٣] صـــحيفة الإمـــام ٢١: ٧٥. يـــوم ٥/ذو الحجّة/١٤٠٨هـ

[١٤] صحيفة الإمام ٢١: ٧٦. يوم ٥/ ذو الحجّـة / ١٤٠٨ هـ

[١٥] أورده ابن فهد الحلّي في الرسائل العشر: ٤١٦.

[١٦] أورده الشيخ الطوسي في مصـباح المتهجّـد ١: ٣٥٣.

[١٧] صـــحيفة الإمـــام ١٦: ٣٨٨. يـــوم ٢/ذو الحجّة/١٤٠٢هـ

[١٨] صـــحيفة الإمـــام ١٩: ٢٩. يـــوم ٢٨/ذو القعدة/١٤٠٤هـ

[١٩] صـــحيفة الإمـــام ١٩: ٢٨. يـــوم ٢٨/ذو القعدة/١٤٠٤هـ

[٢٠] إشارة الى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [سورة الحجّ ٢٢: ٢٦ ـ ٢٧].

[٢١] صـــحيفة الإمـــام ٢٠: ٧٩. يـــوم ١/ ذو الحجّة/١٤٠٦هـ

[٢٢] صـــحيفة الإمـــام ٢٠: ٧٩. يـــوم ١/ذو الحجّة/١٤٠٦هـ

[٢٣] صـــحيفة الإمـــام ٢٠: ٨٠. يـــوم ١/ذو الحجّة/١٤٠٦هـ

[٢٤] كمـا أنّ التوحيـد ينقسـم الى ثلاثـة أقسـام: توحيـد الـذات، وتوحيـد الصـفات، وتوحيـد الأفعال كذلك الشرك في مقابله ينقسم الى ثلاثة أقسام: شرك الذات، وشرك الصـفات، وشـرك الأفعـال، والمقصـود بالشـرك بـالمعنى المطلـق أقسامه الثلاثة. والمراد به نصّ التلبية: (لبيـك لا شريك لك لبيك).

[٢٥] صـــحيفة الإمـــام ١٩: ٢٨. يـــوم ٢٨/ذو القعدة/١٤٠٤هـ

[٢٦] مستمسك العروة الوثقى ١١: ٣٨٩.

[٢٧] تحرير الوسيلة ١: ٤١٥.

[٢٨] سورة يوسف ١٢: ١٠٦.

الرُؤيَةُ العِلميّـةِ
لَدَى الإمَامِ الخَامِنَـئِي
مُرتَكَزَاتُ رُؤيَةِ الإمَامِ الخَامِنَـئِي لِلعِلم

❖ اعـداد وتحـقيق: عبـاس النـوري [1]

(١) باحث وكاتب من العراق.

١ـ رسالة الإسلام

إن الموقع الديني للإمام الخامنئي جعل من البعد الإسلامي للعلم أساساً حاضراً في ثنايا كل خطبه في حضرة أهل العلم، فتحدّث عن موقع الإيمان العميق بما يقول وبما يقوله الإسلام في العلم، وجعل من البعد الإسلامي السلاح السحري الذي يصل لقلب الإنسان وعقله، ويولّد فيه تلك الدافعية الكبرى، هذه الدافعية التي كان من شأنها أن تصالح قلب الإنسان مع عقله، فتصبح طاقاته متناسقة وواثبة ضمن مواصفات الفرد الإيجابي في المجتمع، ولذا، كان البعد الإسلامي في كلام الإمام عن العلم رقيقاً وشفافا ينفذ للقلب والوجدان، ويصل بالعلم إلى الهدف المطلوب ضمن سلسلة قناعات الإنسان الفلسفية والروحية وترجمتها العلمية، لتحدث التناغم المطلوب، وينطلق الإنسان الحر الواعد العارف بما يفعل وإلى أين يصل: لمصلحة الناس ولمنعة الأمة ودفاعاً عن الإنسان ولنصرة المستضعفين، وإنقاذ البشرية وصولاً للغاية الأسمى والأنبل ألا وهي رضا الله سبحانه وتعالى، فكلام العلم عند الإمام كان جزءاً من المشروع العقائدي الروحي ومنطلقاً منه وعاملاً لأجله، فتحصيل العلم وجهاد العلم واجب سيسأل عنه القادر عليه وسيثاب بعظيم الثواب من عند الله تعالى من حمله وخدم به، ففي كلام الإسلام عن العلم قال الإمام:

"لقد أضفى الإسلام قدسية على العلم، فالعلم شيء مقدّس والتحصيل العلمي يتميّز بقدسية خاصة. إن العلم يختلف عن باقي الأمور، فهو ليس مجرّد وسيلة لتحقيق الثراء كغيره من الوسائل، مع أنه يحقّق الثراء، ولكن ينبغي الحفاظ على قدسيته.. إن العلم نور، وهذا ما يجب أخذه بعين الاعتبار، وهو أحد شؤون الجامعة الإسلامية".

ويتابع الإمام في نفس الخطبة:

"إن أحد مصاديق العمل الصالح هو نفس النشاط العلمي الذي تقومون به في الصف، أو العمل الذي تقومون به في المصنع أو في المزرعة. إن نشر العلم وتوفير فرص العمل عبادة كما أن الصلاة وقراءة القرآن عبادة وهذا ليس بالأمر الهين".

ويربط الإمام العلم والتعليم والعمل بالسمو الإنساني المتوجّه إلى رضا الله تعالى فيقول في نفس الخطبة:

"إن الهدف من وراء جعل الثواب على التعليم والعمل هو أن الله تعالى جعل كمال البشرية في العلم والعمل، والمجتمع العاطل عن العمل أو الذي يتكاسل في العلم وكذلك المجتمع الجاهل لا يستطيعان ارتقاء مدارج الكمال البشري، وكلما كان العمل أكثر نفعاً كان الثواب أكثر؛ والثواب هنا، ليس فقط لتعليم القرآن وعلوم الدين، وإنما أيضاً لتعليم الجبر والمثلثات والفيزياء والهندسة، فما دمتم تصنعون من أولاد الناس علماء يفيدون المجتمع بعلمهم، فإن تدريسكم هذا فيه ثواب وأجر، هذا هو منطق الإسلام. إذن، المكسب الأول هو تحصيل الثواب الإلهي، والمكسب الآخر الذي لا يقلّ أهمية هو المساهمة في بناء صرح مستقبل مجتمعكم".

إذن، فالعلم العملي: بحثاً وتدريساً، عند الإمام الخامنئي، هو عبادة كما الصلاة وقراءة القرآن، فالصلاة وقراءة القرآن هما جزء من بناء روحية الإنسان، فيما العمل العلمي هما جزء من بناء روحية

المجتمع ، وقد جعل الله تعالى في كلا الأمرين ثواباً طالما كان القصد منعة الأمة بفردها ومجتمعها .

ثمّ يحدّد الإمام الخامنئي أي علم نريد ؟ وعن أي علم نتحدّث ؟ فيقول في الخطبة :

"إن الاختلاف بين نظرة الإسلام والعالم المادي تجاه مسألة العلم هو أننا نريد العلم لسعادة البشر وتكاملهم وتفتّح استعداداتهم واستقرار العدالة التي هي أكبر الأماني البشرية ، فيما يراد من العلم أن يكون خادماً لأكثر الناس والمجتمعات ظلماً ، ويجب أن يخرج من هذه الوضعية . . إن نظرة الإسلام إلى العلم هي نظرة الشرف والنظافة والبعد عن الهوى والهوس ، هي نظرة التوجّه المعنوي ، فنحن إنما نريد العلم لأجل هذا ، ولهذا ينبغي أن نسعى في هذا المجال ، وهذه الرؤية التي تعرّضنا لها يجب أن تكون موجودة في الطالب الجامعي ، ومثل هذا العمل ممكن" .

الرؤية العلمية عند الإمام الخامنئي

فلم ير الإمام العلم إلا في سبيل الإنسان وكرامة الإنسان وسعادته ، العلم المنطلق من القيم الروحية السامية ، والذي يتكامل فيها مع سيرة ومسؤولية الإنسان في خلافة الله على الأرض ، وتلك المسألة كانت المفصل في الخلاف حول النظرة للعلم مع الغرب الذي ألحق بنفسه عار إدخال العلم وسيلة لقهر الشعوب الأخرى ، ومنع التقنية والرفاهية عنها وحصارها بالجهل المقيت طيلة قرون من الزمن ، ونراه يؤكّد في خطبة سبقتها حاجة البشرية للعلم والأخلاق مع تقديم أولوية الأخلاق على العلم ليشكّل البيئة الحاضنة نحو "علم إنساني" لا علم تلحق به خطيئة قتل الإنسان لأخيه الإنسان عن طريق التفوّق التقني والاستعلاء العرقي والعنصري المتجلّي في سلوك الغرب ، فيقول :

"إن تحصيل العلم والمعنوية ،

والعلم والإيمان ، والعلم والأخلاق ، هو ما يفتقر إليه العالم اليوم ؛ وإنّ الجامعة الإسلامية توفر العلم مع الإيمان ، والعلم مع المعنوية ، والعلم مع الأخلاق بلا فصل أحدهما عن الآخر .

إنّ الذين يقولون : التناقض بين العلم والدين ؛ لم يشاهدوا منطقة نفوذ العلم والدين ، فلكل منهما منطقة نفوذ معاً ، والمزج بينهما يعني أن يوجّه الإيمان سلاح العلم نحو الجهة المطلوبة ؛ لأن سلاح العلم يمكن أن يستهدف الأخيار والأشرار ، ولكن الأمر يتوقف على من يمتلك هذا السلاح .

فلو كان الإيمان يتحكّم بالعلم في الدول الغربية لما اتجه الغرب نحو تصنيع القنبلة الذرية ، ثم ما لبث أن وقف أمامها عاجزاً لا يستطيع أن يسيطر عليها ، أو يتركها تدمّر العالم .

ولما كانت هناك أصلاً ظاهرة الاستعمار والاستعمار الجديد - الذي هو وليد العلم - ولما عانت الدول والشعوب من التسلّط السيطرة والقهر ونهب الثورات خلال القرنين الماضيين .

فما ورد في كلامه يؤكّد أن لا فصل بين الجهتين : العلم والمعرفة تستمد من الأخلاق والإيمان ، ومن هذه النقطة ينطلق ليمتّن اللحمة بين العلم والدين ، عازياً سبب ادعاء الخلاف من قبل البعض أنهم لا ينظرون إلى المنطقة المشتركة بينهما ؛ فالعلم علم الله المودع في الأرض وعلى الإنسان الخوض في غماره واكتشافه وتسخير نتائجه إلى بني آدم وفق ما أمر الله تعالى به ، والعلم المودع في الأرض إنما رسالة من الله تعالى لعقل الإنسان لكي يتدبّر ، ولكي يزداد اطّلاعاً وسعة أفق وخروج من دوائر الدنيا الضيقة إلى رحاب الإشارات الإلهية التي توقظ القلب والعقل ؛ فالعلم باب إلهي فتحه الله تعالى لتتضح طريق معرفته تعالى ولتزداد قلوب العارفين خشية منه . . .

الرؤية العلمية عند الإمام الخامنئيومن هذا التأسيس يؤكّد الإمام أن العلم سلاح ، ولكن الإيمان هو من

يقوده إلى الاتجاه الصحيح، وهذا ليس كلاماً نظرياً، وإنما مستمد من التجربة السوداء والمرّة في تاريخ الإنسانية عندما تعب الغرب في حربه المُكلفة تجاه الشرق، فاتجه إلى صناعة القنبلة النووية، ثم عجز عن السيطرة عليها فسبّبت أعظم كوارث البشرية وأكثرها كلفة في الأرواح. فليس هذا العلم الذي يُراد، وليس العلم مطلوباً بحدّ ذاته ترفاً أو وسيلة فتك الإنسان بأخيه الإنسان، بل إن الإمام يطرح شعار التوأمة بين الجهتين والتي تحتاج كل منهما الأخرى لكي تندفع في نفوس البشر، وفي ذلك الطرح مدخل لحلّ المشاكل التي عانت منها الأمم في علاقاتها بين بعضها البعض ولا تزال، ونعني بها مشاكل استعمار الشعوب الغنية ومالكة العلم للشعوب الفقيرة والإمعان في قهرها وسلب ثرواتها، وتحديداً منذ القرنين الماضيين وإلى الآن، وبالطبع فإننا لا نقدّم هذا الحل كخلطة سحرية تحل عبرها قضايا العلاقات البشرية ومشاكل العالم واحد القطبية الأميركية أو متعدّد الأقطاب، ولكن نقدّمه كأساس وأرضية صالحة نبني عليها مفاهيم جديدة مستمدة من القيم الصالحة والمتعارف عليها بين الأمم، وبالطبع على قاعدة ما أتى وبشّر به الأنبياء عليهم السلام وتحديداً أولو العزم منهم.

ثمّ ترقى نظرة الإمام إلى العلم بوصفه كل حركة علمية وثقافية وعملية تنجز لصالح النظام والجمهورية الإسلامية بأنها عبادة، فليس فقط طلب العلم عبادة وإنما كل إنجاز أو مشروع ينطلق من أسس العلم والثقافة والعلم الصالح هو عبادة، ثم يوسّع أفق العبادة والثواب الإلهيين فيقول:

"فلو أنّ المعلّم حالياً في إيران الإسلامية علَّم الطالب كلمة بقصد تقديم خدمة إلى هذه البلاد - التي هي حالياً مهد الإسلام وساحة عظمة الأحكام الإسلامية وإشعاعها - فإن هذه الكلمة حسنة وإن صارت مائة كلمة غدت مائة حسنة، وإن استوعب التعليم ليله ونهاره ملأت الحسنات أوقاته.

إن العامل الذي يعمل في مصنع أو يخطّط أو يشرف أو يقدّم أي مجهود آخر لأجل تطوير إيران الإسلامية - التي هي اليوم ساحة المظاهر المعنوية والإلهية - وتقدّمها وازدهارها، ولكي تستغني عن الأجانب ولا تقلق من ناحية الحظر الاقتصادي الذي تفرضه هذه القوة العظمى أو تلك، فإنّ هذا العامل يحصل في كل لحظة من عمله على حسنة ويكون قد أتى بعبادة، وكل من يتعاون معه في هذا العمل سيشاركه في هذه العبادة دون أن ينقص ثواب العامل الأول. إنّ العطاء الإلهي بهذا الشكل، فأحياناً يشترك عشرة أشخاص بإنجاز عمل واحد لكنّهم يحصلون على عشر حسنات لا أن تتقسّم الحسنة الواحدة بينهم، بل إن لكل واحد منهم ثواباً مستقلاً عند الله تعالى. واليوم أيضاً لدولتكم هذه الخصوصية.

قلّما توجد في الدنيا قاعة درس وصالة مصنع أو مختبر أو جامعة يشملها الله برضاه، بل وحتى ساعات استراحة المعلم والعامل - الذي يستريح بقصد أن يكون قادراً على العمل في الغد - يكون مشمولاً برضا الله".

إن الربط الرائع الذي قدّمه الإمام للعلم والدين على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة إنما أراد به تعزيز المفهوم الإسلامي، بأن معرفة الله تعالى إنما هي عن طريق العلم والخشية من الله تزاد بالعلم السوي الصالح المبني على تغليب قيم الإنسانية العليا في المجتمعات المتباينة بأعراقها وأهدافها، لكن هذا الرابط إنما أراده الإمام ليمتد باتجاه تقدّم البلاد واستعادة الحق والكرامة المسلوبة من المستكبر وبث الأمل في قلوب كل المستضعفين في الأرض، فيقول في خطبة:

"إن العمل والعلم والثقافة وقاعة الدرس والمختبر والجامعة والجو العمّالي والمصنع يمكنه التأثير على التقدّم وبث الأمل في قلوب الشعوب وإذلال العدو وإبعاد المستبدّين في العالم، المتمثّلين بحكومة أميركا، عن أهدافهم الشيطانية يوماً بعد يوم، وهذه هي هدفية العمل، وحالياً ينبغي أن تكون هي الهدف في

الجمهورية الإسلامية" .

الرؤيـــة العلميـــة عنـــد الإمـــام الخامنئيفالإمام يشدّد ويكـرّر فـي العديـد من خطبه على الـربط بـين العلـم بالـدين لنهضة الأمة ، ولكن أيضاً فإن هذا الربط يشمل أيضاً المدى المتوسّط ، فالبعيد أن يقدّم الشعب المسلم فـي إيـران النمـوذج والأمل لخلاص البشرية ، فيتساءل فـي نفس الخطبة قائلاً : "فما هي إيـران ؟ إن إيـران الإسـلامية هـي اليـوم مظهـر لخـلاص البشـرية ونجاتهـا" . وهـذا الطموح ليس بالأمر السهل ، وهو العارف بأوضـاع الجمهوريـة والحصـار الـدولي عليهـا ، فيتـابع : "مـع أننـا لا نمتلـك علاقات واسعة مع البشـرية ، فمـاذا نريـد أن نصـنع ؟ إن القضـية تكمـن هنـا" ؛ فالطموح كبير والحصار مستمر منذ ثلاثة عقود علمياً وتقنيـاً قبـل أي شـيء آخـر ، ورغم ذلك عليكم المبادرة وتحقيـق هـذا الطموح ! إنّ التحدّي يكمن هنا ، إن من أهم مزايا القائـد ألا يضـيع البوصـلة ، وأن يحـافظ علـى الـربط بـين دقـائق الأمـور وتفاصيلها مع التوجهـات الاسـتراتيجية ، وهو العـارف بمـا يريـد والمـتحكّم بـأوراق القوة لديه يرعاها ويقلّبها ورقة ورقة ، فيمـا رهانه الكبير بعد التوكـل علـى اللـه تعـالى والإخلاص لـه هـو علـى قلـوب الشـباب الصافية المفعمة بالحيوية والصدق ، وهـو يوصـي دائمـاً بـأن يتخـرّج الشـاب مـن الجامعـة ، حـائزاً قبـل الشـهادة علـى مسـتوى عـالٍ مـن الناحيـة الدينيـة والأخلاقيـة نظـراً لخصوصـية الطالـب الشاب فـي الاعتبـار الإسـلامي ولموقعـه المميـز لـدى الإمـام الـذي يقـول عنـه : "فأين تجدون أفضل من الجامعـة لينهـل الطالـب علمـه منهـا ، وأي القلـوب أكثـر نورانية من قلوب طلبة الجامعات الفتية ؟ إنكم تشاهدون اليوم كـم يسـعون لإبعـاد شبابنا عن الأجواء الدينية . . . " .

فـي الخلاصـة ، ثمّـة قداسـة للعلـم وللتحصـيل العلمـي ، وهنـاك ضـرورة للحفاظ على قدسيته والإنفاق على العلم استثمار للأمة ، والله تعـالى جعـل كمـال البشـرية فـي العلـم والعمـل ، وكمـا أن تحصيل علوم القرآن والفقه هـي عبـادة ، فـإنّ تحصـيل سـائر العلـوم بنيّـة منفعـة

الأمة والدفاع عنها هو أيضاً عبادة؛ إن المراد من العلم كما رآه الإمام الخامنئي هو سعادة البشرية ورفعة إنسانية الإنسان، ووقف الظلم وتحقيق العدالة في الأرض، فلا فصل بين العلم والدين فثمة أرض مشتركة بينهما، والعلم سلاح للمستضعفين عليهم الأخذ به والجهاد فيه، وإلا فهلاك الأمة ينتظرها في صراع قاس مع الغرب الذي لا يرحم والذي يفتقد الإنسانية لديه، حيث القتل والإبادة ممكنان لديه فيما لو اقتضت ضرورات الاستقرار والمصالح الدولية، إذن، فالعلم حصن وسلاح لا غنى عنه مع الكرامة.

١ـ١ـ العلم الحديث والدين: تلازم مسارات الحقيقة والتوحيد:

إن التقدم العلمي المطرد في مراكز الأبحاث في العالم ولا سيما أبان العقود الأخيرة يعزز ويثبت التلاقي الكامل بين الله تعالى والعلم من خلال ما تقدمه نظم الفيزياء الجديدة في التجانس الرائع بين الذرة أصغر مكونات المادة وبين نظام عمل المجموعة الشمسية والمجرات التي يعجز العقل البشري عن تصور حجمها ونطاق امتدادها، وأيضاً من خلال المفهوم الثوري الهائل لفكرة المادة، والكون من خلال العلم الحديث مخلوق وبخلق الكون ولد معه الزمان والمكان وتؤكد الفيزياء الحديثة أن شيئاً ما كان في الأصل موجوداً قبل الانفجار، كما أن التآلف بين العقل البشري والأسرار الموجودة في الكون يحوي لغز الحياة ولغز الحقيقة الكونية، فإعجاز الله في الكون إنما هو موجه للعقل البشري وثمة علاقة بين العلم المكنون والعقل الإنساني، وكما يشبه الفيزيائي الشهير شرودنغر: "إن الكون من دون الإنسان يكون أشبه بمسرحية تمثل في قاعة تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين".

الرؤية العلمية عند الإمام الخامنئي

إن الجمالية الكامنة في مخلوقات

الله وفي النظام الذي لا يمكن للعقل البشري أن يبلغ مداه والتماثل والتناظر في مفاصل الكون ، مضافاً إليها كل ما تتفتق عنه صراعات الفيزياء الحديثة ، تعزز روح التوافق بين العقل والطبيعة وبين الوجدان والمادة على نحو لم يتأت من ذي قبل ، ولسنا نغالي إن قلنا أن وصف الموضوع بكلمات عابرة مختصرة لا يفي الموضوع حقيقته .

والفيزياء تطلق في جنبات الكون رسالة الكمال من جديد ، ولكن هذه المرة بمفردات العلم التجريبي وكما قال الفيلسوف الفرنسي جان غيتون : " إن المفهوم الفيزيائي الجديد قد جرد المادة من ذاتيتها وأتاح في الوقت ذاته فرصة الأمل بسبيل فلسفي جديد ، سبيل ما بعد المادية منفتح على الانصهار بين المادة والروح والواقع هذا العلم الحديث بمفهومه الانقلابي على مستوى إعادة مكانة العقل فيه ، أخذ ينتج مفاهيم جديدة تُسقط الحدود بين الروح والمادة وتعمل للمصالحة بينها ، فهو يتحدث عن مفهوم الانفجار العظيم الذي أولد المادة ومعها الزمان والمكان وهذه الصيغة التي يقدمها العلم بأدلة متعددة إنما تعود إلى تطابق روايتي العلم والدين حول نشأة الكون ، وبالشكل الإجمالي الذي تتحدث عنه ، الكتب السماوية ، والأهم في رواية العلم الحديث عن خلق الكون أنها قدمت إلى العقل البشري سبل الكمال في فهم الكون وتفسير أصوله وأرشدت إليها من خلال التوازن التام الظاهر منذ اللحظة الأولى في عملية الخلق وتسلسل أشكال العمل والتطور فيه ، ومن خلال ما يسميه علماء الفيزياء اليوم " النزوح السري للمادة نحو النظام " حيث كل ذرة تعلم تماماً ما ستفعله الذرات الأخرى وحيث أن " الحركة العشوائية للمادة " في ظاهرها ليست إلا صورة لنظام أعمق ، وما كان يسمونه أهل المادة سابقاً صدفة لم يكن إلا عجزاً عن فهم درجة النظام الرفيعة المستوى .

أما الغوص في أعماق المادة فلا يوصل إلا إلى دخان رياضي احتمالي

لا محسوس يفلت من الإطار المادي الأعمى والقاصر للمجموعات، لينطلق إلى مستوى الوعي والفهم المجرد القابع في ذهن الإنسان، وعليه، لا سبيل للمعرفة الفلسفية من خلال المادة كمنطلق وكشراع وحيد، ومن خلال ذلك يستنتج علماء الفيزياء حديثاً أن الروح والمادة هما حقيقة واحدة متكاملة وأن حقيقة الكون لا تدرك من خلال إدراكات الكون المتاحة بماديتها فقط، وأن التماثل في قوانين الفيزياء من الذرة إلى المجرة تستلزم القناعة بوحدة النشأة والمنشئ.

بعد هذا العرض السريع لواقع البحث العلمي في صفحاته الأخيرة وعلى المستوى العالمي: في أوروبا وأميركا وآسيا، يمكننا أن نؤكد إن توجه المجتمع ككل في مسار متناسق موحد لطلب العلم هو بعينه سلوك مسار الحقيقة الإنسانية، ولقد تبين لنا مما سبق أن ميدان عمل الحقيقة العلمية يقود إلى توحيد الله تعالى، فمسار العلم هو التوجه إلى الله تعالى والحقيقة العلمية تؤدي إلى معرفة الله ووحدانيته وعظمته من خلال عظمة الوجود وأسرار المكنونات فيه، وعليه، فعندما تتأكد الحقائق العلمية بالقوانين الصحيحة والمطابقة للواقع وعندما لا يقر الدين " بحقيقة " غير مطابقة للواقع أو بعيدة عن التزامات القانون الأخلاقي، فإن معيار المطابقة للواقع يؤدي إلى نفي كل أشكال التضارب أو التنافي بين اعتبارات كل من الدين والعلم.

وثمة من يذهب بعيداً في تقريب وجهتي عمل العلم والدين فيطلق اسم " العلم الإسلامي " على كل أشكال العلوم الصحيحة التجريبية منها والإنسانية فيقول:

" إن العلم الذي يشيد بنيانه على الحق وعدم التخريب والإضرار هو " علم إسلامي " وعلينا الإشارة ثم التشديد على وجود عناصر في الإسلام سوف تكون لها أعظم الآثار على الحضارات المنبعثة وفي مقدمتها إصرار الإسلام على عدم الفصل بين

الدين والعلم والأخلاق والفلسفة وما المأزق الذي تعاني منه البشرية في عصرنا هذا إلا نتيجة من نتائج الطلاق بين العلم والأخلاق كما الغفلة عن الله وتجاهل موقعه بوصفه حافظاً للمخلوقات.

إن العلم الوحيد الذي يمكن أن يراهن عليه الإنسان المعاصر لنجاته من الانتحار الجماعي هو العلم الذي يستند إلى الله ويستقي من فيض علمه، وهو العلم الذي ينظر إلى القضايا والقواعد الأخلاقية، لا بوصفها اختراعات ذهنية محضة، بل أمثولات ذات آثار واقعية صحيحة".

نستنتج مما تقدم أن حمل راية العلم والنهوض بالبحث العلمي لدى الإمام الخامنئي، بالإضافة لكونه سبيلاً للأمة نحو النهوض والاقتدار، هو جزء من مسار الأمة نجو التوحيد والمعرفة الحقيقية لله من مظاهر خلقه، ومن هنا يمكننا الإطلالة على البعد العبادي في سلوك درب العلم من وجهة نظره حيث يقرّب العلم البشرية من الله بإبقائها على تماس مع عظمة جمال وإعجاز مظاهر خلقه، وتماماً على قاعدة الآية الكريمة: " إنما يخشى الله من عباده العلماء ".

٢ـ الاستلهام من مشروع الإمام الراحل الخميني:

في الذكرى الثالثة لرحيل الإمام الخميني قدس سره في ٢ ذي الحجة ١٤١٣ هجرية حدّد الإمام الخامنئي معالم خط الإمام الخميني بأنه السلوك والمنهج الحكومي لإمام الأمة المفسّر لنظام الجمهورية الإسلامية، والمشتمل على الخصوصيات الإحدى عشر. ومما يعنينا في بحثنا بجانبه العلمي، نورد الأسس والمنطلقات التي تحرّك منها الإمام الخامنئي في نظرته لتطوير الأمة علمياً وتقنياً، وفيها إعطاء الأهمية لقدرات الشعوب واعتبارها مبدءًا من المبادئ، فالإمام الخميني كان يعتقد أن التحولات الكبرى في العالم لا تحدث إلا على أيدي الشعوب، وتستطيع الشعوب أن توجد

التحوّل في الدنيا وتغير المحيط الذي تعيش فيه .

الرؤية العلمية عند الإمام الخامنئيأكّد الإمام الخامنئي على الحرص والتوجّه الصارم للإمام الخميني لإعادة بناء البلاد وتقديم نموذج عملي للعالم ، ولهذه المسألة موضع مهم في نظر الإمام الراحل في الشهور الأخيرة من حياته المباركة ، وهو أصرّ على بناء البلاد اقتصادياً وعلى كل المستويات وبلحاظ تأمين الدخل العائد للشعب وللدولة ، حتى نتمكن من أن نقدّم نموذجاً عينياً وعملياً من البناء الإسلامي .

أما بالإطلالة على المشهد الاستراتيجي للمنطقة ككل ، فإن بعض المؤرخين يعتبر أن هناك حدثين حصلا بعد الإمبراطورية العثمانية : الأول نشوء الكيان الصهيوني ، والثاني نشوء الجمهورية الإسلامية في إيران ، فمنظومة المنطقة محورها إسرائيل ، وإيران عامل مساعد لأميركا وإسرائيل . من هنا كان الأمر إعطاء إسرائيل أقصى مدى من الاقتدار العلمي والسياسي والإعلامي والعسكري والأمني ، وأن يكون لها الوجود المتفوق في المنطقة والوجود المؤثر والوجود الطاغي ، أما بقية دول المنطقة فهي دول مساعدة وليس لها وجود أمام إسرائيل ، لذلك كان واضحاً تماماً أن تكون الاستراتيجية الغربية بجانب إسرائيل ، ومن جهة ثانية منع الحرب على إسرائيل وسلب قدرة الدول العربية على الاستقلال في امتلاك السلاح ، أي سلب قدرتهم على أن يكونوا دولاً منتجة لا دولاً علمية وسلب قدرتهم على الاستقلال الاقتصادي والمادي حتى على صعيد الإنتاج ، وسلب قدرتهم حتى على إنتاج الأمور الضرورية البسيطة ووضع اليد على منابع الثروة في المنطقة ، هذه سياسات الغرب ، والتي ردّت عليها الجمهورية الإسلامية في إيران بالدور والمهمة والرؤية والهدف ، وقد اعتبر الإمام بكلماته أن المشكلة الرئيسية هي إسرائيل وحدّد مصادر الخطر

والتهديد ليس على إيران وحدها ، بل على شعوب المنطقة وعلى ثروات المنطقة .

إن المشهد برمّته يوحي بأن المواجهة مع أميركا ليست بالأمر السهل ، وأن الأمة مثقلة بجراح التاريخ في استعماره القديم واستعماره الحالي المقنع والذي يستهدف إنتاج نفوس تابعة مستهلكة لا منتجة ، إن هذا التحدّي يتطلّب شحذ الهمم والتوجّه بكامل الإصرار والجدّية نحو الأخذ بأسباب القوة ، المنطلقة من سلاح العلم والمعرفة ، والموصل للتكنولوجيا التي تحقّق هذه القوة وتعطي المنعة والردع للأعداء فيما لو فكّروا بإعادة الجمهورية إلى موقعها السابق في المنظومة الأميركية التي تجعل من إيران وسائر الدول العربية ملحقاً لخدمتها .

بالعودة إلى جذور المرتكز الثاني ذي المعالم الواضحة في المشروع السياسي للإمام الخميني الراحل ، فقد حدّد الإمام الخامنئي التناقض الذي تعيشه الأمة في خطاب ، جاء فيه :

"تحتل إيران موقعاً استراتيجياً حساساً على خارجة العالم ، وإن بلداً يتمتّع بمثل هذا الموقع الجغرافي والطاقات والمصادر الطبيعية والإنسانية والمعدنية ، من شأنه أن يكون من أكثر البلدان تقدّما وثراءً في العالم ، إلا أن الحكومات القاجارية والبهلوية كانت تتحول إلى حكومات متخلّفة وعميلة تتسم بالذل والهوان ، يتحمّل المسؤولية أولاً الحكّام الفاسدون وغير الأكفّاء بالدرجة الأولى ، فهم لم يكونوا يهتمون إلا بحياتهم الشخصية وبما يحفظ استمرار مراكزهم ومصالحهم وقبولهم بإملاءات المستعمر والغربي .

لقد رفض الشعب هذه السياسة وانتفض كحركة الميرزا الشيرازي وآية الله المدرّس ، ثم كانت النهضة المظفّرة للإمام الخميني حيث الجمهورية الإسلامية الآن بقدراتها رفعت لواء المعنويات الكبرى عالياً : السعادة والأمان والتقدّم العلمي

والاستقلال، وقد ثبت أن ذلك أمر ممكن رغم أن الاستكبار يعتبره ادعاءً مبالغاً فيه، لأنه سوف يبطل فلسفاتهم ويسقط أساليبهم.

فبلوغ ذرى التقدّم العلمي عندنا سوف يفتح الباب واسعاً أمام شعوب العالم للانطلاق نحو الحياة الكريمة والفضلى، والغرب سوف يحبط محاولاتنا، فيما عزمنا وعزم شعبنا هما راسخين ولسوف نواصل المسيرة بكل ثقة بطاقات شبابنا".

إن إحدى ضرورات الأخذ بالعلم والوصول فيه إلى درجات الأمم المنافسة تظهر في كلام الخامنئي في شعوره والأمة كلها معه بالاستفزاز في الكرامة والقدرة لهما، وباستخدام الغرب معايير التفوق والعنصرية والاعتدال ووصم خصومه بالإرهاب والتطرّف في كل مرة يصطدم الغرب بحركات استقلالية استنهاضية تريد شق طريق خارج عن التبعية للاستعمار، فقد دفع الشعب الإيراني غالياً ثمن حريته وكرامته وتعرّض لحصار غير مسبوق في التاريخ جاوز الثلاثين عاماً ولا يزال أمام صمت مريب لكل قوى الديمقراطية في العالم، فمعايير الاعتدال والديمقراطية إنما تطبّق داخل دول الغرب وفي العلاقات بينها، ولكن الأمر يختفي فجأة وتتعطّل كل القيم الإنسانية وتحديداً قيم الحق والعدالة والحرية عندما يبدأ تعاطي الغرب مع دول الاستضعاف، أو عندما تواجه الدول الإسلامية الكيان الصهيوني المزروع أصلاً في قلب العالم الإسلامي كلك، فقد وصف الإمام الخامنئي عنجهية الغرب هذه واستفزازه للأمة بالقول:

"لقد وجّه الغرب العديد من الإهانات لشعب وحكومة إيران، فقد قال أحد الأميركيين يجب استئصال جذور الشعب الإيراني، وقال آخر لاحقاً: إن الإيراني الجيد والمعتدل هو الإيراني الميت، هكذا أهين الشعب وفرضوا عليه الحصار لمدة ثلاثين سنة، وانتهى الحظر لصالح الشعب والحكومة في إيران فيما ذنب هذا

الشعب دفاعه عن هويته واستقلاله" .

ولعلّ ذكر هذه السطور إنما بغرض الإشارة إلى أن الإمام الخامنئي إنما يريد استثارة الحمية الشخصية والوطنية والإسلامية لتعزّز حافزية الأخذ بالعلم ، وشحذ الهمم للانطلاق بالعلم وتوجيه رسالة للغرب ولسائر الأمم إلى موقف المسلمين من العلم وقدرتهم على التعاطي معه بكفاءة عالية وصولاً إلى تقديم نموذج تحثّ به إيران كل الدول المستضعفة أن تحذو حذوها في التحرّر والاستقلال وصناعة القرار الوطني بكل كرامة واقتدار .

٣ ـ رسالة الجمهورية الإسلامية والدور المناط بها إنسانياً وعالمياً :

في كلام الإمام الخامنئي في خطبة له بحضور وزير العلوم وأساتذة جامعة طهران حدّد إحدى مرتكزات رؤيته للعلم بالقول : "إن الثورة قامت على أساس العلم" ، قاصداً كل العلوم اللازمة لإنجاح الثورة : علوم الدين وعلوم الدنيا ، وقد جرى تسخير كل العلوم في اتجاه الهدف الإنساني والعالمي للثورة ، نافياً بذلك كل ادعاء لمسافة أو اتهام بأن الثورة تجافي العلم والتطور والتنمية ، ولم تكن تلك الادعاءات إلا في إطار الحرب النفسية ضد الثورة ومحاصرتها أمام جمهور الناس عندما أسقط في يد أعدائها وتبيّن لهم أن الثورة ليست انقلاباً على السلطة أو مجموعة من مجازفين أو ضباط يريدون إزاحة أطراف ومصادرة مناصبهم . ثم يتابع الإمام في نفس الخطبة ليحدّد توجّهات الثورة واهتماماتها داخل الجمهورية وخارجها ، ويربط بين الأهداف السامية للثورة ومتطلبات ترجمة هذه الأهداف ومواجهة التحدّيات المتحرّكة في الزمان والمكان : "فقضية دولتنا وثورتنا ونظام الجمهورية الإسلامية في عالم اليوم ليس متعلّقاً بدولةٍ أو شعبٍ من بين عدة مئات من الشعوب الأخرى . لا شكّ بأنني في بعض الأحيان أذكر في محضر تجمّع ما أن أرضنا تمثل واحداً في المئة من مجموع دول

العالم، وعدد سكاننا يقارب الواحد بالمئة من المجموعة البشرية في هذا العالم؛ ولكن القضية لا تتعلق بقناعتنا بالواحد بالمئة في غيرها من القضايا. فنحن لدينا رسالة. إيران الإسلامية لها رسالة أكبر من هذه الكلمات. لا علاقة للأمر بفتح البلاد والهيمنة أبداً. فلا يرد في خاطر أي إنسان مسلم أن يكون فاتحاً للبلدان؛ بل القضية قضية الرسالة تجاه البشرية. فالبشرية اليوم وكذلك في الأزمنة الماضية تعاني من ابتلاءات كبرى. مثلما أن لكل واحد منا مسؤوليات مشتركة تجاه أسرته ومدينته ووطنه، وإذا كنا نستطيع أن نفعل شيئاً لبلدنا ولم نفعل نكون قد ارتكبنا ذنباً؛ فإذا كنا نستطيع أن نزيل غبار الهم عن وجه شعبنا فقد ارتكبنا معصية؛ ونفس هذه القضية موجودة بشأن البشرية. فلو رأينا أن الناس في العالم يعيشون تحت ظل نظام سياسي باطل وقمعي وكنا قادرين أن نتقدم خطوةً من أجل نجاتهم ولم نفعل فنكون قد أذنبنا. فإذا رأينا أن قسماً مهماً من سكان العالم يعانون من الجوع والفقر والعوز وهم غرضٌ للبلاءات، وكنا قادرين أن نفعل شيئاً ولم نفعل فإن هذا يُعدّ ذنباً. وبهذه النظرة ينبغي أن نتطلع إلى قضايا البشرية وقضايا العالم. إذا كان هذا الأمر هكذا ينبغي أن يكون هناك بلدٌ مقتدر؛ فينبغي أن يكون الشعب والدولة ومؤسسات النظام والبلد قوية ومقتدرة. إذا لم نكن مقتدرين فإن القوى العالمية ستؤثر فينا، ولن يبقى مجالٌ لكي نؤثر حتى في جيراننا أو مواطنينا، فماذا بشأن كل البشر. فيجب الحصول على القدرة. ولا شكّ بأن هذه القدرة ليست في الآلات العسكرية. حتى أنها ليست في القدرة على الإنتاج والتقدّم التكنولوجي.

فما هو مهمٌ بالدرجة الأولى في إيجاد القدرة الوطنية هو بنظري شيئان: أحدهما العلم والثاني الإيمان. فالعلم أساس القدرة؛ سواء اليوم وعلى مر التاريخ؛ وسوف يبقى الأمر كذلك في المستقبل. إن هذا العلم يؤدّي

أحياناً إلى ابتكار أو اختراعٍ ما وفي بعض الأحيان لا يكون كذلك. وكذلك المعرفة فإنها أساس الاقتدار؛ وهي تخلق الثورات؛ وتؤدّي إلى الاقتدار العسكري والسياسي. ففي رواية قيل: العلم سلطان من وجده صال به، ومن لم يجده صيل عليه. أي أن للقضية بعدين: إذا كنتم تمتلكون العلم يمكن أن تكون لكم الكلمة العليا واليد العليا - (صال) يعني هذا - وإذا لم تمتلكوا ذلك فلا يوجد حالة برزخية بل صيل عليه، فالذي يمتلك العلم يكون له اليد العليا عليكم؛ وسوف يتدخّل في ثرواتكم وفي مصيركم. وإن كنوز المعارف الإسلامية مليئةٌ بمثل هذه الكلمات...".

الرؤية العلمية عند الإمام الخامنئيلقد كانت ثمرات الثورة الإسلامية أنها كانت شعلة الأمل الحقيقية لتجربة نموذجية ورائدة ينطلق بها المجتمع والدولة نحو نهوض حقيقي بعد حقبات من الظلام والتخلّف، نهوض يسمح لها بقول ما تريد للعالم، ويسمح لها بدعوة العالم إلى دين الله وتقديم التجربة الإسلامية الحقيقية بعد قرون وقرون من العبث والتخلّف، وليس الدافع فقط ما يحقّقه العلم من ثراء وقوة ونفوذ سياسي أفضل في عالم السياسة، وإنما ثمة دافع ديني شرعي يعيش في أعماق كل مسلم لتقديم المثل الحي لدولة العدل الإسلامية، هذه التجربة التي يحلم بها السائرون على نهج الإسلام الحقيقي والتوّاقون لتجسيد مدرسة النبوة وأهل البيت، والتي لم تسمح لها التطورات التاريخية داخل البنية الإسلامية من الظهور والتعبير عن نفسها وتقديم التجربة بالحد الأدنى، إن الوصول إلى هكذا حلم شجاع متوقد لن يكون بالأماني وبرجز الشعر وإنما بالكفاح والعمل استناداً لرؤية علمية تعي العلم سلاحاً وتتعاطى مع العلم كسلطان حاكم، من امتلكه صال به ومن نأى عنه صيل عليه، وليس أبلغ من تعبير "صال به" ليصف الإمام حال الدول المستكبرة كيف

تصول وتجول وتتحكّم بمعايير الحق والعدالة وتبث مفاهيم ترفض تعريفها دولياً كمفهوم الإرهاب مخافة أن ينطبق المفهوم على الكيان العنصري الصهيوني وكل ذلك يجري بامتلاك سلاح العلم والتقانة وحرمان الآخرين منه في احتكار ظالم، كثيراً ما ولّد الثورات المتنقلة في العالم، في تأكيد أن العلم وسلاح العلم بمفرده لم يكن يوماً ليجلب السعادة والاستقرار للإنسانية والشواهد أكبر من أن تحصر في هذه السطور.

إيران التي سبق وتحدّث عنها الإمام فيقول: "إن العلاقات الدولية تقوم على الغلبة والقوة، فالقوى الدولية تملي قراراتها على الآخرين استناداً إلى ما تملكه من قوة وسيطرة بعيداً عن العقل والمنطق، وأما جريرة العديد من الحكومات أنها ترضخ لمثل هذه القوة بلا أدنى رفض أو مقاومة، ولذا، أصبح من الشائع أن تقوم الغطرسة على القوة، وخير مثال على ذلك قضية الطاقة النووية ومسألة الشرق الأوسط، إن العلم هو الذي يرقى بالبلدان إلى ذروة القوة والاقتدار واكتساب العلم والمعرفة هو الذي يوصل إلى الاستقلال والكرامة ونبذ التبعية".

ثم يشدّد في موقف آخر على الدور المفصلي للعلم في التحرّر والانطلاق نحو صناعة بلد آمن ومستقبل مشرق فنراه يقول: " فما هو السبيل للحصول على هذه القوة (الاقتصادية والسياسية والنفوذ الثقافي) ؟ إن أصل وأساس كل ذلك هو القوة العلمية ! إنّ الشعوب التي تتمتّع بالقوة العلمية هي التي تستطيع إيصال صوتها إلى جميع سكان المعمورة، وأن تستحوذ على سياسة أقوى ونفوذ سياسي أفضل في عالم السياسة، ومن هنا ينتعش الاقتصاد، فالمال مصدره القوة كما هو الحال في هذا العصر.

لقد تأخرنا علمياً، ليس فقط خلال مرحلة الخمسين عاماً من الشؤم في العصر البهلوي (حيث جرّدوا هذا الشعب من كل مكتسباته العلمية خلال تلك الفترة، وهي قضية مهمة

تحتاج إلى تحليل تاريخي واجتماعي) بل وحتى قبل ذلك .

إن واجب جميع الجامعات هو أن تعمل بجد على سد هذا الفراغ العلمي ، وأن ترفع من مستوى أدائها الدراسي قدر الإمكان " .

وفي مطالعة خطب الإمام عن العلم ، يتوقف المرء أمام التكرار لأهمية العلم وربطه بالدور المناط بالجمهورية إقليمياً وعالمياً ، ويمكننا فهم هذا التكرار تشديداً في ربط توجّه الأمة نحو العلم ، وإثارة الأجواء نحو الجهاد العلمي الذي دعا إليه والذي كنا قد بيّناه في الفصول السابقة ، فيقول في خطبة أمام رؤساء الجامعات ومؤسسات التعليم العالي ومراكز الأبحاث .

"مع أن الحديث عن العلم أصبح مكرراً ، إلا أنه في الوقت نفسه يحتاج إلى التكرار وعلينا أن نتكلّم بملء أفواهنا وبكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، بالقدر الذي يكون كافياً للإيمان بهذه المسألة الضرورية ، ونقوم بإنقاذ البلد من المرض المزمن الذي أُبتلي به على مدى العهود المتمادية ، ليتجه نحو الاهتمام بالعلم والتركيز على البحث .

بناء على ذلك ، فإنّ العلم هو مسألة حياتية بالنسبة لحاضرنا ومستقبلنا ، فإذا ما افتقرنا في المجال العلمي ، فإنّ أي عمل آخر نقوم به ، سوف يكون عقيماً ومن ودون نتيجة .

إنّ طاقتنا البشرية للغور في ميدان العلم ، والتقدّم فيه طاقات جيدة ، فهي أفضل وأعلى من معدّل الطاقات التي يمتلكها أفراد العالم ، وهذا يعتبر من المسلّمات في الوقت الراهن " .

فالرسالة التي تحدّث عنها الإمام والتي استعرضناها في أول الفصل تبدأ إرهاصاتها في إنقاذ البلاد من براثن الجهل والتخلّف ، ثم لتنطلق في مراكمة المعرفة والتجربة والبحث العلمي وصولاً إلى التأثير وقيادة الأمة نحو النجاحين اللذين ينتظرانا : نمو وتقدّم في الداخل وتقديم النموذج لسائر الأمم ، وصولاً إلى التدخّل

لإحقاق الحق الدولي ومنع الباطل الدولي. ثم يعطي الإمام النموذج الحي عن عقبات تحقيق رسالة؛ فرسالة إيران هي اكبر من هذه الكلمات: منع الظلم في العالم، تحقيق العدالة بين الأمم، مساعدة الأمم الضعيفة على النهوض، لأجل ذلك ينبغي أن تكون إيران بلداً مقتدراً، مؤهلاً للقيام بهذا الدور العظيم ولأجل ذلك يتطلب الاقتدار الوطني العلم والإيمان: العلم يؤدّي للثروة والاقتدار السياسي والعسكري... هذا هو تفسير رواية: العلم سلطان، فمن يمتلك العلم يمتلك اليد العليا، وهذه اليد إمّا لكم وإمّا عليكم ولا حالة برزخية، وإذا خسرتم ميدان العلم فستجدون من يتدخل في قراركم وثرواتكم وفي مصيركم... بهذه الكلمات حدّد الإمام أخطر وأوضح المرتكزات التي يؤسّس عليها رؤيته للعلم: العلم معيار الغلبة أو الهزيمة وهو يتحرك بالتكامل مع معيار الإيمان الذي يقود نحو الإرادة ثم كسر الموانع نحو تحقيق النصر من خارج الموازين الوضعية.

ويحذّر الإمام في إحدى الخطب السابقة من الاعتماد على الآخرين في طلب العلم، فيصف العلم بأنه "أساس التقنية المتطورة وتقدّم الحضارة المادّية والمدنية المتعلقة بالمسائل الحياتية، ولو كان همّكم الاعتماد على الآخرين في هذا العلم والقيام بعملية الاستهلاك فسوف لا تتمكنوا من تحقيق أي هدف"؛ فالعلم ليس سلعاً استهلاكية نستوردها، بل على الأمة إيجادها وإلا حرمت منها، وهذا هو تماماً ديدن الغرب في التعاطي مع ملف الطاقة النووية السلمية لإيران: لا يريد الغرب امتلاك إيران لتقنية الطاقة النووية السلمية لكي تبقى محتاجة لهم وأسيرة قرارهم السياسي يعطوها متى رضوا ويحرمونها متى خرجت إيران من منظومتهم السياسية والاقتصادية".

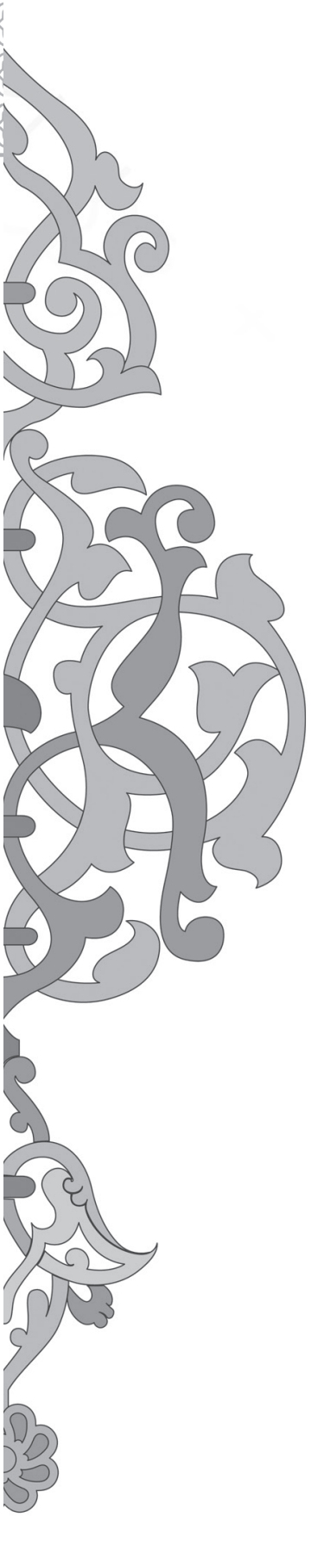

في فكر أعلام الحوزة

الخِطَابُ السِّيَاسِيُّ
لِلسَّيِّد مُحَمَّد بَاقِر الصَّدْر قدس سره

❖ من محـاضرات آية الله السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

الحديث عن (نداءات) الشهيد الصدر الثلاثة مرتبط بموضوع الخطاب السياسي له قدّس سرّه باعتبارها تشكل أهم مفردة م مفردات ذلك الخطاب ؛ ولذلك يمكن من خلال دراستها دراسة دقيقة ومستوعبة أن نستنتج التصورات العامة التي تتناسب مع ظروف المرحلة .

وقبل الحديث في مجال الخطاب السياسي ، وتشخيص النقاط الرئيسية فيه ، أذكر قضية تبقى للتاريخ ـ أيضاً ـ وهي : أن الشهيد الصدر في بداية التحرك السياسي الاخير كلفني أن أكتب شيئاً في تشخيص معالم تلك المرحلة ، وخطابها السياسي الاعلامي ، وكتبت عدة صفحات ، وقدمتها له ، وقرأها ودوّن عليها بعض الملاحظات الجزئية ، ثم أرسلت الى خارج العراق ؛ لأجل أن تعمَّمَ ، وتتحول إلى منهج لتحرك العاملين في الخارج ، يلتزمون به ويتأسون به .

ونشرت المادة المكتوبة في أحدى الدوريات السرية للأخوة في حزب الدعوة الاسلامية ، وعندما خرجت من العراق رأيتها منشورة في (صوت الدعوة) ، ولم تنشر حسب علمي في غيرها ، ولم يذكر فيها إسم عندما نشرت ، وإنما نشرت كمادة ثقافية ضمن هذه المنشورات .

وكان الشهيد الصدر عندما أعد (النداءات) يتوقع أن يستشهد ، وأراد لها أن تكون بيانات موجهة للشعب العراقي في الخطاب السياسي له ؛ لأن طريقة إعدادها في الواقع تؤكد هذا الأمر ، وهو لم يعلنها في حياته ، وإنما أعدها لما بعد وفاته وشهادته ، وطلب

الإحتفاظ بها حتى يستشهد، وعند ذاك تذاع وتعلن.

وكانت أمانة ووديعة عندي شخصياً حتى أستشهد، وقد بادرت بتحمل مسؤولية إيصال هذه الأشرطة الى خارج العراق بعد شهادته بفترة قصيرة نسبياً، مع الأخذ بنظر الاعتبار الظروف التي كان يعيشها الشعب العراقي، وكنا نعيشها في المحاصرة، ولكن لسبب وآخر، واجتهادات لبعض الاخوة الاعزاء في الخارج جمدّت، ولم يتم الاعلان عنها الى فترة شهرين أو ثلاثة شهور، حيث أعلت تلك النداءات بعد ذلك من اذاعة الجمهورية الاسلامية، بصوته الشريف.

أهمية البيانات الثلاثة

من هنا فإنّ لهذه البيانات قيمة مهمة جداً من الناحية التأريخية، ومن الناحية العملية، والمحتوى السياسي لها، فهي:

أوّلاً: تنبع من شخصية الشهيد الصدر التي رسمها بدم الشهادة، حيث أستشهد قدّس سرّه؛ لأجل هذه المضامين والأهداف.

ثانياً: أن تسجيل هذه البيانات كا في قمة التصدي للعمل السياسي، حيث انه لم يسجلها كما يسجل بعض الناس بيانات، تتناول التعليق على أحداث تقع، ويتفاعل معها هذا البعض، بل كان قدّس سرّه متصدياً بقوة للعمل السياسي، ويرى نفسه يتحمل مسؤولية كل كلمة تقال فيها، يرى في الوقت نفسه أنه كيف يمكن أن تنسق، وتبرمج هذه الكلمات لتأخذ طريقها للواقع.

ثالثاً: كان موقعه هو الموقع القيادة للحركة الإسلامية في العراق، حيث اعترفت ـ حينذاك ـ كل القوى الإسلامية، دون استثناء أنه قائد التحرك الاسلامي في العراق، والفرق بين القائد وغيره هو أن نظرته ـ عادة ـ تكون أكثر شمولية، ودقة، وإدراكاً لظروف المرحلة، وخصائصها، وملابساتها؛ ولذلك تكتسب هذه

البيانات أهمية، باعتبارها صدرت من هذا الموقع القيادي.

طبيعة الخطاب السياسي

الخطاب السياسي ليس هو الخطاب الفكري، أو العقائدي، أو الخطابات التي تمثل الخطوط الثابتة في حركة الإنسان، بل هو يختلف عن ذلك، لكنه في الوقت نفسه يستمد كل مفاهيمه ورؤاه من العقيدة، والفكر، ومن هذه الخطوط الثابتة، الخطاب السياسي يمثل تطبيقات ومصاديق للعقائد، والأفكار، وللخطوط السياسية، الثابتة على المرحلة الفعلية السياسية، والاجتماعية التي تعيشها الأمة؛ ولذلك فأن هذه المفردات تصاغ بصياغات معينة، تؤخذ فيها ـ مضافاً إلى الأفكار والعقائد والخطوط الثابتة ـ الظروف القائمة بكل خصائصها وملابساتها، فتدخل كعنصر أساس في مفاهيم وأهداف الخطاب السياسي، حيث تصاغ، وتلبس هذه الخصائص المعاشة للجماعة التي تتحرك سياسياً.

ولعل أفضل شاهد من الشواهد التي نعرفها على الإطلاق في هذا المجال، هو القرآن الكريم، الذي يمثل الخطاب السياسي للرسالة الاسلامية، وللمسلمين، عندما أرادوا أن يغيروا المجتمع الجاهلي الى مجتمع اسلامي؛ ولذلك نجد في القرآن بعض القضايا التي قد تبدو ليست بتلك الأهمية الفكرية والاستراتيجية، لكن مع ذلك أولاها القرآن، وأعطاها أهمية خاصة، لأنها تمس ظروف المرحلة التي يعيشها المجتمع والمسلمون.

ويمكن أن نفهم فكرة (النسخ) وهي من الأفكار الرئيسية في الإسلام من خلال مفهوم الخطاب السياسي؛ لأنّ النسخ إنّما هو عبارة عن تغيير تلك المواقف والخطابات، التي كانت موجودة في مرحلة ما، عندما تتطور مرحلة، وتتغير ظروف، يتم تغيير الخطاب بصورة تنسجم مع المرحلة الجديدة، مع أنها خطابات إلهية نابعة من الفكر والعقيدة، وهي لا تتغير،

وهكـذا فكـرة الإطـلاق والتقييـد فـي الخطابات الالهية فـي القـرآن ، عنـدما يأتي البيان ـ أحيانـاً ـ يـأتي مطلقـاً فيـه شمول ، دون أن يدخل في التفاصيل ، ولكن عندما تتطور المرحلة بعـد ذلـك ، قـد يـدخل الخطـاب فـي تفاصـيل مشخصـة ، فيطلـب فـي البدايـة مـن المسـلمين أن يصـلّوا ويزكـوا دون أن يذكر ما هي الصلاة والزكـاة ، ودون أن يحدد لهم مقدار الزكاة ، ولا وقتهـا ، أو يفرض عليهم الخصوصيات الأخـرى ، ولكـن عنـدما تتطـور المرحلـة تبقـى الصلاة والزكاة واجبتين ، ولكـن يطتـور الخطـاب فتطلـب لزكـاة مـن الأمـوال المحـددة المعروفـة ، وتُعـيّن المقـادير والخصوصيات ، ولو كـا قـد عينهـا منـذ البدايـة فقـد يكـون ذلـك سـبباً فـي ان كثيراً من الناس لا يـدخلون الإسـلام ، بل قد يتحولون الى ألد أعداء الإسلام ، فمثلاً : الراعي ، والاعرابي فـي البادية قد لا يتعقل فكرة وحكم أخذ مقدار من زرعـه ، أو غنمـه للمصـالح العامـة ، أو الفقراء ، حيث كان الانسان يقاتـل مـن أجلهما .

هـذه مسـائل تـرتبط بموضـوع الخطاب السياسي ، الذي هو عبارة عن تشـخيص المواقـف والـرؤى السياسـية للمرحلة الفعلية التي تعيشها الأمـة مـن ناحيـة ، والحركـة التغييريـة مـن ناحيـة أخرى ، والنظام الحـاكم لهـذه الحركـة التغييريـــة ، والطواغيـــت وقـــدرات المســـتكبرين ، والاولويـــات فـــي الاهـداف ، والقواسـم المشـتركة ، كـل هذه الملابسات تأخذ بنظر الاعتبار من الفكـر ، والعقيـدة ، والخطـوط الثابتـة التي يريدها الإنسان .

الخطـاب السـياسي والخطـاب العقائدي

يلاحظ في أحاديث وكلمـات كثيـر مـن الكتـاب المسـلمين ، وجـود خلـط تـداخل فـي الحـديث ، بـين الخطـاب العقيـدي ، والفكـري ، وبـين الخطـاب السياسي ، بحيث لا يفرق بينها .

فبعض الاخوة يتحـدث بالخطـاب العقيـدي والافكـار التـي يـؤمن بهـا ،

ويضعها في موضع الخطاب السياسي، مع ان هذا خطأ فادح في الخطاب السياسي، فمثلاً: فكرة الجهاد في سبيل الله، لم تكن أمراً مختصاً (كعقيدة، وكمنهج، وكفكرة في الإسلام) في مرحلة دون أخرى، بل هي من الأفكار الثابتة في الرسالات الالهية بشكل عام، ولكن مع ذلك نلاحظ انّ الاسلام في بعض مراحل حركته السياسية جمد فكرة القتال والجهاد، وطرح فكرة الانتظار كـ (حتّى يأتيَ الله بأمره...) [التوبة: ٢٤]، وهنا لا يتحدث القرآن عن الجهاد كثيراً، والحث عليه كواجب؛ لأنه لا يراد تعبئة المسلمين للقيام بهذا العمل، فهذا التجميد والتوقيف للفكرة انما هو أمر مرتبط بالخطاب السياسي، فلا يصح أن يقال: كيف يتوقف القتال وهو مبدأ اسلامي، فإن هذا التوقيف إنما هو بالخطاب؛ مراعاة للظروف التي تعيشها الجماعة، لا إلغاء للفكرة من العقيدة، أو حذف لها من الأفكار.

انّ الممارسة الخارجية للجهاد، كأمر يصدر؛ لأجل أن يتحرك المسلمون، ويجاهدوا، ويقاتلوا، ويشهروا السيف، قد يكون ذلك مرهوناً بظرف وخصوصية معينين.

إن عدم الفصل بين الخطاب العقائدي والفكري عن الخطاب السياسي، والتمييز بينهما، هو أحد الاشكالات الرئيسية المهمة في الحركة الإسلامية؛ لأن الحركة عاشت فترة من الزمن بما يسميه البعض: بالمرحلة الثقافية الفكرية، التي تعمقت في وجود الحركة الإسلامية وأشخاصها، فعندما أرادت الانتقال الى المرحلة السياسية وقعت في خطأ كبير، إذ بقت آثار الخطاب في المرحلة الثقافية واضحة في خطاب المرحلة السياسية، بحيث لم يتمكن أبناء الحركة الإسلامية ـ وكما يريد الشهيد الصدر ذلك ـ أن ينتقلوا بخطابهم إلى المرحلة السياسية بكل معالمها، لم يتمكنوا أن يتحرروا من قيود المرحلة الثقافية ـ فظل خطابهم نفس الخطاب الثقافي، يعني نفس الخطاب

العقائدي، بمعنى: أنهم يعيشون الآن مرحلة سياسية، ومواجهة لها خصائصها، وظروفها المعينة، ولكنهم يتحدثون أحياناً بعيدين عن هذه المرحلة وظروفها.

أركان الخطاب السياسي

بعد التعرف على مفهوم الخطاب السياسي ومحتواه لا بدّ أن نفهم الاركان الضرورية، التي لا بدّ ان يتناولها، ويشتمل عليها؛ ليمكن من خلالها التعرف على كيفية تناول الشهيد الصدر لها في بياناته، وتحديد مصاديقها في خطابه.

التعبئة

الركن الأوّل: تعبئة الأمة باتجاه الأهداف المنشودة، التي يراد تحقيقها في تلك المرحلة، بعد تشخيصها وتشخيص أهميتها؛ لذلك لا بدّ أن يشتمل الخطاب السياسي على العناصر الأساسية لتحقيق هذه التعبئة، وعندما يفقد الخطاب السياسي عنصر التعبئة باتجاه الأهداف يفقد ركناً رئيسياً، ويصبح مصاباً بالشلل في جانب من جوانبه وخصائصه.

تحديد الهدف

الركن الثاني: تشخيص الهدف المرحلة المقصود م الحركة السياسية والتوجيهية فيه نحو ذلك الهدف، وتشخيص أولوية الهدف.

فالخطاب السياسي لا يريد أن يتحدث عن الأهداف العقائدية والفكرية، وهي الأهداف الاستراتيجية الثابتة، وإنما يريد أن يحقق هدفاً مرحلياً يرتبط بظروف الامة، وأوضاعها الخاصة، وهذا الهدف يجب أن يكو مشخصاً ومحدداً، وإذا لم يحدد الهدف المرحلي فسوف يصبح من الطبيعي أن يكون الاتجاه الى الهدف الفكري والثقافي؛ لأن الامة تعيش في الأهداف الفكرية والثقافية بطبيعة الحال، والمخاطبون قد تكون لهم تصورات متعددة، ومختلفة عن الأفكار الثقافية والفكرية، وعندئذ قد لا

يجتمعون على تصور واحد ثقافياً وفكرياً، فالعلمانيون لهم أفكار ثقافية ورؤى فكرية، وهكذا الآخرون، وقد يكون البعض لا عقائديين، ولا مسلمين، ولا علمانيين، بل يفتشون عن أوضاعهم الخاصة، ومعاناتهم وظروفهم، ولا بدّ من الاستفادة من طاقاتهم، فعدم تحديد الهدف سيجعل الحالة التعبوية المقصودة لتحقيق الهدف مشتتة، وموزوعة، وغير قادرة على تحقيقه، بل قد تتقاطع معه باعتبار التشوش بالافكار والتصورات.

تشخيص المنهج والمسار

الركن الثالث: تشخيص الطريق والمسار الذي لا بدّ أن تسير فيه الامة؛ لتحقيق الهدف، حيث يكون السؤال الأوّل عند تعبئة الامة نحو الهدف المرحلي واقناعها به: ما الطريق والنهج الذي لا بدّ أن يتبع لتحقيق ذلك الهدف؟

هذا المنهج لا بدّ أن يتبناه الخطاب السياسي، ولا يراد منه المنهج الكلي العام الفكري، الثقافي، العقائدي الذي يتبناه الإسلام، وإنما يراد منه: تحديد معالم الطريق من خلال الوضع القائم الفعلي، لذلك بدون تحديده قد نجد اختلافاً كبيراً بين الناس حول إسلوب العمل الموصل للاهداف، وهذا النزاع قائم في ساحتنا الإسلامية بالفعل، وليس هو خلاف بين أفراد عاديين، بل بين القوى السياسية، وفي مجموعات وأوضاع كبيرة، حتى على صعيد المرجعية، باعتبار ان المنهج العملي الخارجي غير مشخص، وعندما نرجع إلى أصول هؤلاء المراجع، أو المختلفين في هذا الموضوع، لا نرى فيهم اختلافاً كبيراً في الفكر والعقيدة، بل الاختلاف في تشخيص ظروف الوضع القائم فعلاً، والمنهج الذي ينبغي أن يتبع، والأسلوب والمسار الذي يجب أن يلتزم في تحقيق ذلك الهدف.

الخطاب السياسي لا بدّ أن يركب على هذا الموضوع؛ ليصبح واضحاً في

تعبئة الأمة؛ للالتزام به، والا تبقى العملية مشلولة وتراوح في مكانها، إذا لم يشخص المنهج بشكل واضح ودقيق.

تشخيص المواقف

الركن الرابع: تشخيص المواقف تجاه القضايا المتعددة والمختلفة التي تعيشها الأمة، حتى يصبح الخطاب خطاباً سياسياً يعيش مع الأمة في قضاياها وظروفها، مثلاً: تطبيق القرار ٩٨٦، ما هو الموقف السياسي تجاه هذا القرار؟ هل هو دعوة الأمة لرفض القرار أو تأييدها له؟ وكيف ترفض أو تؤيد القرار؟ وهكذا في كل حادثة، كحرب غزو الكويت التي أشعلها النظام، وتجاه المحاصرة الاقتصادية، وتجاه الأوضاع في شمال العراق، وهكذا فإن تشخيص المواقف السياسية تجاه هذه القضايا بشكل واضح لا على أساس المبادئ الكلية، بل بشكل واضح عملي يرتبط بظروف المرحلة، والمصالح العامة للأمة في حركتها نحو تحقيق أهدافها، وهكذا تشخيص الرؤى السياسية للأحداث؛ لأن الموقف السياسي دائماً يتبع رؤية معينة، ونعبر عنها: بتحليلنا السياسي للحدث، ونتيجة هذا التحليل والرؤية لهذا الحدث أو ذاك، تتخذ المواقف، وهذه القضايا ترتبط بالخطاب السياسي، وبدونها يعتبر الخطاب السياسي ناقصاً.

عناصر تعبئة الأمة

لقد استوعب الشهيد الصدر هذه الأركان في خطابه السياسي، ونداءاته السياسية، استيعاباً كاملاً يرتبط بالأوضاع السياسية التي كان يعيشها قدس سره وتعيشها الأمة.

فعلى مستوى الركن الاول ـ تعبئة الأمة ـ شخص الشهيد الصدر في البداية العناصر الرئيسية من هذه التعبئة، منطلقاً من هوية الامة، وخصوصياتها، وظروفها فكانت هذه العناصر التعبوية هي العناصر الأربعة التالية:

العقيدة

العنصر الأوّل : انّ الأمة في العراق أمة مسلمة بصورة عامة ، ومرتبطة بالإسلام وبقيمه ، حتى أولئك الذين خرجوا عن الإسلام سياسياً (العلمانيين) ، فإن الكثير منهم بقي مرتبطاً بالإسلام ، كممارسة عبادية ، أو كتراث تعتز به الامة ، وترتبط به ، إذاً ، الإسلام كعقيدة ، وحالة في تاريخ وتراث الأمة قضية يمكن أن تدخل كعنصر رئيس لتعبئة الأمة .

ولكن ما هي حدود الإسلام التي طرحها الشهيد الصدر قدّس سره واستفاد منها في هذه التعبئة ؟

انّ ذلك قد يرتبط بالوسائل ، ولكن القاسم المشترك ـ وهو أصل الإسلام ـ طرح كقضية من القضايا الرئيسية ، واعتبرها جزءاً من هوية الأمة ، لا يمكن التنازل أو التغاضي عنه عندما نريد من الأمة أن تساهم في عملية التغيير .

أتذكر بهذا الصدد الأبحاث السياسية التي جرت في دمشق ، عندما أريد توقيع ميثاق بين القوى السياسية العراقية المختلفة ، وفيها قوى علمانية ، وبعضها ينظر إلى الإسلام كتراث ، أو ممارسة شخصية يحترمها أو يلتزم بها ، مع انه لا يؤمن بالاسلام أصلاً ، ولكن مع كل ذلك عندما طرحت قضية (الشعب العراقي شعب مسلم) تمسكت القوى الاسلامية بهذا المضمون ، ليس باعتبارها نقطة رئيسية ترتبط بالفكر والثقافة التي تلتزم بها هذه القوى ، فهذا شأن إسلامي ، وإنّما باعتبار انّ قضية الاسلام قضية تعبوية للامة في مقابل النظام ، وبهذه الرؤية تمكنت القوى الإسلامية من فرض هذه الهوية في الميثاق ؛ باعتبار وجود هذا القاسم المشترك ، وهذا العنصر الأساس .

الإسلام له محتوى ومستويات كثيرة في فهم الناس ، يبدأ من أعلاها كحالة شمولية لكل الأوضاع الاجتماعية ، إلى أن يصبح بنظر بعض الناس عبارة عن تراث يحترم ، ويقدس ، ويكرم ؛ باعتباره جزء من تاريخ الأمة ، الإسلام له مفهوم واسع

لـدى هـذه القـوى، ولكنـه كعنصـر مشترك لـدى الشـعب العراقـي والقـوى السياسية لا بدّ أن يدخل كعنصر رئيس في تعبئة الأمة.

الحرمان والمظلومية

العنصر الثاني: انّ قضية الحقـوق المهـدورة للعشـب العراقـي، قضـية مشتركة وحقيقة، قائمة لدى الامة فـي العـراق، يواجههـا عامـة أبنـاء الشـعب العراقـي، وهـي وإن كانـت ذات مسـتويات متعـددة، ولكنهـا قضـية مشتركة، وقد توجه لها السيد الصدر في نداءاته، ولها علاقة بتعبئة الانسان العراقي، سواء كان مسلماً يرى من حقه ان يقيم الاسلام وحقوق الاسلام المهدورة، أم كان غير مسلم، فإن غير المسلمين قـد هـدر النظـام حقـوقهم الدينية كلّها.

هذه مسألة مهمة في الخطاب السياسي والتعبئة، وهو ما يعبّر عنه: بالمطالبة بالحقوق العامة، ومن موقع المظلومية، فمثلاً: حين نقاتل النظام المستبد في العراق يمكن ان نطرح ـ كما يصنع البعض ـ في خطابنا السياسي: ان هذا النظام هو نظام لا يحكم بما أنزل الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا الخطاب هو خطاب حسن، ولكنه حق يراه ويتحرك من أجله الانسان المؤمن الواعي الملتزم.

كما يمكن أن نطرح في الخطاب السياسي: مصادرة الحقوق، واستباحة الحرمات، والاستهانة بالكرامات، وهو حق أيضاً يستحق القتال من أجله، ولكنه في الوقت نفسه حق يتشرك فيه الانسان المؤمن الواعي، والانسان الذي لا يلتزم بالإسلام، أو أنه لا يهتم في الوقت الحاضر بحكم الإسلام، وكذلك يشترك فيه أولئك الذين هدرت حقوقهم واستبيحت كراماتهم، فهم يتحركون دفاعاً عنها.

انّ الخطاب السياسي لا بدّ أن يركز على المضمون الثاني، انطلاقاً من الفكر الاسلامي، والشريعة الاسلامية، بخلف الخطاب العقائدي الذي يركز بطبيعة الحال على

المضمون الاول.

كان الشهيد الصدر في تشخيصه للخطاب السياسي يرى: أن يتم التركيز في الطرح على هذه الحقوق المهدورة، وبمستوياتها المختلفة، فإذا اقيم حكم إسلامي، عندئذ يبدأ الانسان بتربية الأمة تربية عقائدية على كل التفاصيل التي يؤمن بها الانسان في موضوع الحقوق، كما صنع ذلك القرآن بخطابه المكي السياسي في القسم المكي، فالفرق بين الخطاب المكي والخطاب المدني ان الاول كان يتحدث عن هذه المنطلقات الانسانية والاخلاقية، والتي تتطابق مع العقيدة الإلهية، واما الثاني فكان يتحدث عن تفاصيل تلك المنطلقات، وهذا ما كانت تفرضه المواجهة وطبيعة تشخيصها.

العزة والكرامة

العنصر الثالث: انّ الله تعالى فطر الانسان على الاحساس بعزة النفس والكرامة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الاسراء: ٧٠]، فهو احساس موجود حتى عند الانسان الوضيع الذليل اجتماعياً، بل حتى المستسلم للامر الواقع، غاية الأمر فإنه بسبب الضغوط والمحاصرة وغير ذلك من الاسباب، أصبح هذا الاحساس غير فاعل، لكن اصل الاحساس يكون موجوداً في داخل الانسان، وقد اهتم الشهيد الصدر قدّس سرّه بالتركيز على هذا الجانب، وتعبئته لمواجهة النظام، وبهذه الاثارة والتعبئة يتحرك هذا الاحساس عند الناس؛ ولذلك تعتبر قضية العزة، والكرامة، ومخاطبة الفطرة الانسانية من القضايا المهمة في الخطاب السياسي.

الأمل والثقة بالنفس

العنصر الرابع: انّ قضية الأمر بالنصر، والثقة بالنفس في تحقيق النصر بإذن الله تعالى هي من أهم

عناصر التعبئة لدى الأمة، وانّ الشعب يملك كل الامكانات التي تحقق له هذا النصر؛ ولذا أطلق الشهيد الصدر في خطابه السياسي كلمته المعروفة (الشعوب أقوى من الطغاة مهما تجبروا). فاذا قدّم الشعب التضحيات لا بدّ أن يتحقق النصر، والامة والجماعة إذا فقدت الأمل، ورؤية النصر، تتخاذل، وتستسلم، وتقبل بالأمر الواقع.

إنّ قضية النصر مهمة في موضوع الخطاب السياسي والتعبئة السياسية؛ ولذلك يعمل الطغاة ـ عادة ـ على فرض الاستسلام، من خلال قتل روح الأمل، وزرق اليأس في نفوس أبناء الشعب، وكذلك يتخذ المنافقون هذا العامل كعنصر أساس في إلحاق الهزيمة بالجماعة، حيث يعملون من داخلها بايجاد روح اليأس، والحديث عن القضايا التي تدفعها إلى اليأس، وهو ما يسمى: بالحرب النفسية.

ولذلك نجد القرآن الكريم عندما يتحدث عن القضية السياسية يذكر النصر بأنه قضية حتمية، حتى في حالات اليأس التي تصل إلى درجة عالية، بحيث يصيب الرسل بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠] ومع وجود هذه الحقيقة فلا يمكن للانسان ان ينقطع عن الأمل في حركته في أي حال من الأحوال.

ومن هذا المنطلق نفهم أهمية موضوع الإنتظار والتهيؤ، الذي يعتبر من أهم ما يميز مذهب أهل البيت عليهم السلام على كل المذاهب الإسلامية الأخرى، حيث يكون باب النصر فيه مفتوحاً إلى الأبد، ولا بدّ أن يأتي اليوم الذي ينتصر فيه الحق على الباطل انتصاراً مطلقاً، ويحكم العدل كل هذا الوجود، وأن الشخص الذي يحققه هو شخص موجود فعلاً، يتحرك في الواقع الخارجي، وليس شخصاً يأتي في المستقبل كما كانت تتحدث بذلك الأديان، فالشخص

موجـود ويتحـرك ؛ لأجـل النصـر ، فالجندي عندما يشعر أنه يتقل لكنه يتوقـع أن يحقـق الجنـدي الثـاني أو الثالـث أو الرابـع هـذا النصـر ويصـل للهـدف ، يهـون عنـده القتـل ، ولكـن عندما يرى نفسه سيقتل ومعه الجندي الثاني والثالث ، ثـم لا يصـل أي واحـد منهم إلى النصر ، فسوف تضـعف حالـة الصـمود والاسـتمرار بالمواجهـة ، الا ذلـك الانسـان الـذي يـذوب فـي اللـه تعالى ذوباناً كـاملاً ، ويـرى فـي النصـر منه تعالى في معـانٍ أخـرى ، مثـل . . .

التكامـل الـذاتي عنـد الإنسـان أو التكامـل المعنـوي عنـد الأمـة ، كمـا نشاهد ذلك في أنصار الحسين عليه السلام .

ولكـن إذا أردنـا ان نتحـدث عـن الحالـة العامـة الروحيـة والنفسـية للإنسان والأمة ، فلا بدّ أن نأخـذ هـذه القضية بنظر الإعتبار .

إذاً ، هناك عناصر رئيسـية أربعـة ، أهتم بها الشهيد الصدر قدّس سرّه فـي موضع التعبئة .

المَرجِعيَّةُ الدِّينيَّة في مَدينَةِ سامَراء

إطلالَةٌ تاريخيَّةٌ

❖ **الشيخ العلّامة الدكتور صاحب النصار**[1]

(١) أستاذ الدراسات العليا في الحوزة العلمية وجامعات العراق.

لا يخفى ما للحوزة العلمية من دور كبير على مستوى التاريخ، في معالجة جميع المشاكل الحياتية، وإيجاد الحلول المناسبة للوقائع المختلفة، ومن بين تلك الحوزات حوزة سامراء العلميّة التي لم يوضح دورها الريادي في معالجة العديد من الأزمات التي مرّت بالأمة الإسلاميّة، فضلاً عن دورها في الجوانب العلمية والثقافية والمسائل الفكرية والعقائديّة والعبادية والأخلاقية، كل هذه الأمور جعلتنا نضع هذا العنوان محط النظر وكشف الحقائق وإظهار الدور الفعّال لهذه الحوزة الطاهرة.

أهمية مدينة سامراء الدينية:

تعتبر مدينة سامراء من المناطق ذات الأهمية الدينية المهمة في المجتمع الإسلامي، وإذا ما أردنا توضيح تلك الأهمية فيمكن رصدها بعدّة جوانب مهمّة مثلت ذلك الدور، وكما يأتي:

أوّلاً: تعتبر مدينة سامراء قديماً محط سام بن نوح عليه السلام وقيل هو من بناها، ولا غرو أن محط أبناء الأنبياء لتلك البقعة تمثل تحولًا في بيئتها وجعلها مركزًا دينيًا له أبعاده الفكرية في هذا المجال. فهذا ما ورد في كتب البلدانيين العرب، ومن ذلك ما يخبره اليعقوبي في (البلدان) أنّ المعتصم العباسيّ (صار إلى موضع سرّ من رأى، وهي صحراء من أرض الطيرهان، لا عمارة بها، ولا أنيس فيها، إلا دير للنصارى، فوقف بالدير وكلّم من فيه من الرهبان، وقال: ما اسم هذا الموضع؟ فقال له بعض

الرهبان: نجد في كتبنا المتقدّمة أنّ هذا الموضع يُسمّى سرّ من رأى، وأنّه كان مدينة سام بن نوح عليه السلام وجاء في معجم البلدان للحموي: يقولون إنّ سامرّاء بناها سام بن نوح عليه السلام ودعا أن لا يصيب أهلها سوء.

ثانياً: كان لوجود الإمام الهادي عليه السلام في سامراء الدور الكبير في تأسيس وتوثيق تلك الأرض بمبادئ أهل البيت عليهم السلام ونشر الفكر المحمدي بين ظهراني أبناء هذه المنطقة. فإنه عليه السلام بمجرد وصوله مدينة (سرّ من رأى) كانت البركات والمعاجز، ومن ذلك ما رواه صالح بن سعيد حيث قال: (دخلت على أبي الحسن الهادي عليه السلام يوم وروده فقلت له: جعلت فداك في كلّ الأمور أرادوا إطفاء نورك والتّقصير بك، حتّى أنزلوك هذا المكان الأشنع، خان الصّعاليك. فقال: ها هنا أنت يا بن سعيد؟ ثمّ أومأ بيده فإذا أنا بروضات أنيقات، وأنهار جاريات، وجنّات فيها خيرات عطرات، وولدان كأنّهنّ اللّؤلؤ المكنون، فحار بصري وكثر عجبي فقال عليه السلام لي: حيث كنّا فهذا لنا يا بن سعيد، لسنا في خان الصّعاليك)[1].

وإذا ما أردنا أن نسلط الضوء أكثر على تأثير الإمام الهادي عليه السلام على مدينة سامراء نجده لا يختلف عما فعله آباؤه وأجداده الطاهرون عليهم السلام فقد كانوا حريصين أشد الحرص على بناء الفرد المسلم بناءً صحيحًا. فإن دور الأئمّة الاثني عشر الذين نصّ عليهم وعلى إمامتهم الرسول صلى الله عليه وآله واستخلفهم لصيانة الإسلام من أيدي العابثين الذين كانوا يتربّصون به الدوائر، وحمّلهم مسؤولية تطبيقه وتربية الإنسانية على أساسه وصيانة دولة الرسول الخاتم من الانهيار والتردّي يتلخّص في أمرين مهمّين وخطّين أساسيين:

١ــ خط تحصين الأمة ضد الانهيار بعد سقوط التجربة، وإعطائها من المقوّمات القدر الكافي لكي تبقى واقفة على قدميها بقدم راسخة وبروح مجاهدة وبإيمان ثابت.

٢ـ خط محاولة تسلّم زمام التجربة وزمام الدولة ومحو آثار الانحراف وإرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي لتكتمل عناصر التربية الثلاثة أعني الأمة والشريعة والمربّي الكفء ولتتلاحم الأمة والمجتمع مع الدولة وقيادتها الرشيدة.

أما الخط الثاني فكان على الأئمّة الراشدين أن يقوموا بإعداد طويل المدى له، من أجل تهيئة الظروف الموضوعية اللازمة التي تتناسب وتتفق مع مجموعة القيم والأهداف والأحكام الأساسية التي جاءت بها الرسالة الإسلامية وأريد تحقيقها من خلال الحكم وممارسة الزعامة باسم الإسلام القيّم وباسم الله المشرّع للإنسان كل ما يوصله إلى كماله اللائق. ومن هنا كان رأي الأئمّة المعصومين من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله في استلام زمام الحكم أن الانتصار المسلّح الآنيّ غير كاف لإقامة دعائم الحكم الإسلامي المستقر بل يتوقف ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وبعصمته إيمانًا مطلقاً بحيث يعيش أهدافه الكبيرة ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس كل ما يحققه للأمة من مصالح وأهداف ربّانية.

وأما الخط الأوّل فهو الخط الذي لا يتنافى مع كل الظروف القاهرة، وكان يمارسه الأئمّة الأطهار عليهم السلام حتى في حالة الشعور بعدم توفر الظروف الموضوعية التي تهيئ الإمام عليه السلام لخوض معركة يتسلّم من خلالها زمام الحكم من جديد[٢].

ثالثاً: وجود الحوزة العلمية في مدينة سامراء والتي تمثل مصدر ربط وثيق بين المؤمنين من جهة، ومصدر إشعاع فكري وعلمي رصين يقف سداً منيعاً للمؤمنين، كما سيأتي لاحقًا.

البذرة الأولى للحوزة في سامراء:

إن الحوزة العلمية في سامراء لم يكن لها وجود من دون تضحية العظماء من العلماء الذين يبذلون الغالي والنفيس في إعلاء كلمة

الإسلام وترصين الحق ونشر مذهب أهل البيت عليهم السلام ، ومن أولئك العظماء المجدد الميرزا محمد حسن الشيرازي قدس سره الذي هو مؤسس الحوزة العلمية في سامراء .

فلما وصلت إليه زعامة المذهب واستقر به المقام في النجف الأشرف ، قرر التوجه إلى مدينة سامراء التي تضم مرقد الإمامين : علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام ، وفيها غيّب الإمام محمد المهدي الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام ، ويقصدها على مدار السنة عدد غير قليل من المسلمين الإمامية من داخل العراق وخارجه لزيارة الإمامين العسكريين عليهما السلام ، والتبرك بمرقدهما الطاهر ، وسكان هذه المدينة من المسلمين السنّة منذ عهد العباسيين الذين أسسوها واعتبروها عاصمة لهم في عهد من عهودهم . وعندما رسخت مرجعية الإمام المجدد الشيرازي في الأقطار الإسلامية قرر الانتقال من النجف إلى سامراء ، ولم يعلن عن تصميمه في بداية الأمر لأنه كان يخشى ضغط العلماء وهيجان الجماهير عليه ممّا يضطره لترك الفكرة ، وهو مصمم على إنجازها لما فيها من مصلحة للأمة ، وذلك عام ١٢٩١هـ[٣] .

وحين ألقى عصا الترحال في سامراء ، وعرف عنه الرغبة في الإقامة الدائمة بمدينة الإمامين العسكريين عليهما السلام ، توافد عليها العلماء الأعلام وتبعهم الأصحاب والطلاب والتلاميذ ، والكثير من المسلمين الشيعة الذين يرغبون في البقاء إلى جنب زعيمهم الديني الميرزا الشيرازي ، والتشرف بمجاورة مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام ، والاستفادة من فضله وتوجيهه والانضواء ضمن مرجعيته والانتظام بحوزته درساً وتدريساً ومتابعة .

وفي عام ١٢٩١ هـ تشرف السيد المجدد الشيرازي إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في النصف من شعبان ، وبعد الزيارة توجه إلى

الكاظمية لزيارة الإمامين : موسى بن جعفر ، ومحمد الجواد عليهما السلام ، ثم توجه إلى سامراء فوردها أواخر شعبان ، ونوى الإقامة فيها لأداء فريضة الصيام ، ولئلا يخلو الحرم الطاهر للإمامين العسكريين عليهما السلام من الزوار في ذلك الشهر ـ فإنّ الحرم يغلق إذا جاء الليل ولم يكن فيه أحد من أمثال المترجم له ، ويحرم منه سائر الزوار ، وكان يخفي قصده ، ويكتم رأيه ، وبعد انقضاء شهر الصيام كتب إليه بعض خواصه من النجف الأشرف يستقدمه ويسأله عن سبب تأخره ، فعند ذلك أبدى لهم رأيه ، وأخبرهم بعزمه على سكنى سامراء ، فبادر إليه العلامة ميرزا حسين النوري ، وصهره الشيخ فضل اللّه النوري ، والمولى فتح علي السلطانآبادي ، وآخرون من الطلبة والمشتغلين ، وهم أول من لحق به ، وبعد أشهر اصطحب الشيخ جعفر النوري عوائل هؤلاء إلى سامراء أوائل (عام ١٢٩٢ هـ) ثم لحق بهم سائر الأصحاب والطلاب والتلاميذ ، فعمرت به سامراء[٤] . وبذلك أصبح المجدد الشيرازي مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٥] .

الدور الإصلاحي لحوزة سامراء :

كان لوجود الحوزة العلمية في سامراء بقيادة الميرزا الشيرازي دور كبير في عملية إصلاح المجتمع ، فقد تعددت تلك الإصلاحات على أشكال مختلفة ، وبما تخدم المصلحة العليا للإسلام والمسلمين ، وقد ذكر لنا التاريخ عدّة أمور واضحة في خصوص هذا المجال وسنورد بعضاً منها وكما يأتي :

أوّلاً : فتوى تحريم التبغ :

وتعرف هذه الفتوى بثورة التنباك أو ثورة التبغ (بالفارسية : نهضت تنباك) هي ثورة قامت بعد سنة ١٨٩٠م ، حين منح الملك القاجاري ، ناصر الدين شاه ، حق بيع وشراء التبغ في إيران لصالح شركة بريطانية . كان

نحو ٢٠% من الإيرانيين يعملون في قطاع التبغ، وقد أدت الإتفاقية إلى احتكار البريطانيين لهذا القطاع[٦]. وصلت الأزمة ذروتها حين صدرت فتوى التحريم من قبل المرجع الميرزامحمد حسن الشيرازي سنة١٣٠٩هـ / ١٨٩١م حَرم فيها التنباك، جاء فيها: (اليوم.. استعمال التنباك والتوتن بأي نحو كان بحكم محاربة إمام الزمان عجل الله فرجه الشريف)[٧].

ثانياً: جسر العبور:

ومن جملة ما قامت به المرجعية هو بناؤها جسراً على نهر دجلة ليتمكن الناس الذين يعيشون خارج مدينة سامراء والوفود القادمون من بغداد وغيرها من العبور بسلاسة ومن دون عناء وإعطاء الأموال، حيث جاء في تقريراته ما نصّه (كان الناس الَّذين يقطنون خارج المدينة في الجانب الثاني من النهر يعبرون النهر بواسطة (القفف) وكذلك الزوار والمسافرون من بغداد وغيرها، وكان أصحاب المعابر (القفف) يشترطون في الأجرة ويلقى منهم الزوار أذىً كثيرًا، وحل المرحوم السيد الشيرازي المشكلة إذ بنى جسرًا محكمًا على دجلة من السفن بالطريقة التي كانت متبعة في بقية جسور العراق حينذاك تسهيلًا للعبور، ورفقًا بالزوار والواردين، وكما تحدد المصادر أنه أنفق عليه عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهبًا، ثم بعد إتمامه سلَّمه للدولة تتقاضى هي أجورًا وزهيدةً مقابل العبور عليه وذلك لغرض صيانته ودوامه[٨]. وقد بنى عدة دور للمجاورين والزوار لمرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام، وكانت تؤجر بقيم رمزية ممّا ساعدت على تشغيل أيدي ضعفاء وفقراء المدينة وعمالهم.

ثالثاً: خدماتها لطلبة العلوم:

لم يكن دور الحوزة العلمية في سامراء مقتصراً على ناحية دون أخرى فقد كانت خدماتها تجاه طلبة العلوم الدينية والذين هاجروا مع المرجع المجدد أو الذين التحقوا بالحوزة في

سامراء ، فقد قام السيد الشيرازي ببناء مدرستين كبيرتين لطلاب العلم الدينيين غير المتزوجين (وهي ما يطلق عليه اليوم أقسام داخلية) ، أنفق في سبيل بنائهما أموالًا طائلة وشغل عددًا من العمال في إشادة ذلك البناء[٩] . وتُعتبر من أكبر المدارس العلمية الشيعية في العراق ، وظلّتا قائمتين تحكيان قصّة العصر الذهبي للفكر الشيعي إلى أن جاء النظام البعثي البائد وقام بتخريبهما تعبيراً عن حقده الدفين للإسلام وعلمائه[١٠] .

وعلى الرغم من اهتماماته الكبيرة في متطلبات المرجعية ، كان لا يغرب عن باله تفقد العلماء في العراق وخارجه ، وطلاب الحوزات العلمية ، والتعرف إلى أحوالهم المعاشية ، والاهتمام بسد حاجاتهم المادية ، وحل مشاكلهم أينما كانوا . إذ كان له عيون ورقباء يوصلون له الأخبار عن ذلك في الخارج ، وكانت الأخبار تصل إليه باستمرار ، ويهتم بمعالجتها ، ووضع الحلول لها ، والإيعاز لوكلائه وممثليه في البلاد الإسلامية بما يقتضي لتلكم القضايا . أما الحوزات العلمية في العتبات المقدسة ، فكانت موضع اهتمامه بصورة خاصة ، اعتقادًا منه أن البلدان التي تضم المراقد المقدسة يجب أن تطغى فيها الواجهة العلمية الدينية ، تشويقًا لطلاب العلوم المهاجرين الذين يرغبون في التحصيل العلمي الديني والتبرك بمجاورة مراقد أئمة الهدى من آل بيت المصطفى عليهم السلام ، وهذا التشجيع لم يقتصر على طلاب العلوم الدينية ، إنما امتد إلى بعض العلماء المشاهير[١١] ، بغية إبقائهم في أماكنهم ، وعدم انتقالهم إلى بلدانهم ، التي تتوفر لهم فيها سبل العيش أكثر من أي مكان آخر .

إن وجود مراقد أئمة أهل البيت عليهم السلام شكلّت انعطافة في حياة المجتمع السامرائي الدينية والمذهبية ، وركزت المبادئ العلوية المقدسة . فمدينة سامراء بتعدد طوائفها أعطت صورة واضحة للوحدة الإسلامية والتكاتف بين أبناء الطوائف الإسلامية وهذا ما يمثل نقطة قوّة للإسلام والمسلمين . فقد استطاع المجدد الشيرازي أن يجعل من مدينة سامراء ،

مدينة العلم والتعلّم، ومهبط أفئدة العلماء والدارسين. وكان لوجود المرجعيّة الدينية في مدينة سامراء الأثر الواضح في جميع المجالات العلمية منها والسياسية والاقتصادية والوحدة الوطنية. واستطاع المجدد الشيرازي أن يثبت لجميع العالم كيف يستطيع الإسلام أن يبني من مدينة بائسة – حين رحيله إليها – مدينة العلم والحضارة، ونشّط فيها الدراسة الحوزوية ومنحها بعداً جغرافياً واسعاً.

الهوامش:

[١] الإرشاد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري الملقب بـ(المفيد) ت: ٤١٣ هـ، منشورات: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت – لبنان)، ط: ٣، ت: ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م: ٣١٣ – ٣١٤.

[٢] ينظر: أعلام الهداية، لجنة البحوث والدراسات، الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، المطبعة: ليلى، ط: ١، ت: ١٤٢٢ هـ: ٢٥٧.

[٣] تقريرات آية الله المجدد الشيرازي، تقرير بحث المجدد الشيرازي للروزدري، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث – قم المشرفة، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، المطبعة: مهر – قم، ط: ١، ت: ١٤٠٩هـ، ج١: ٢٨.

[٤] ينظر: طبقات أعلام الشيعة، آغا بزرك الطهراني، المطبعة العلمية في النجف الأشرف، ت: ١٩٥٤ م، ج١: ٤٣٩.

[٥] العنكبوت: ٦٩.

[٦] ينظر: موسوعة مصطلحات الشيعة، إعداد هيثم الكسواني، ج٥: حرف الثاء.

[٧] ينظر: النجم الثاقب في أحوال الإمام الحجة الغائب، الشيخ حسين الطبرسي النوري، تقديم وترجمة وتحقيق وتعليق: السيد ياسين الموسوي، الناشر: انتشارات لساق الصدق – قم المقدسة، المطبعة: وفا، ط: ١، ت: ٢٠٠٧ م – ١٣٨٦ ش، ج١: ٣٠ – ٣٢.

[٨] تقريرات آية الله المجدد الشيرازي، تقرير بحث المجدد الشيرازي للروزدري، ج١: ٣٢.

[٩] المصدر نفسه.

[١٠] "انترنت"، الحادي والعشرون بعد المئة لرحيل المجدد الشيرازي الكبير (من شيراز وحتى سامراء حياة ملؤها الجهاد وسمتها التضحية)، مقال نشر بتاريخ: ب ت، موقع الشيرازي نت: http://www.alshirazi.net/maqalat/٩٤.htm.

[١١] ينظر: طبقات أعلام الشيعة، ج٥: ٤٤١.

النِّظَامُ السِّيَاسِيّ
عِنْدَ الفَاضِلُ السِّيُورِي

❖ السيد محـمّد رضـا موسـويان [1]

(١) أسـتاذ وباحث / حوزة قم المقدسة.

يحمل مفهوم الدولة معنى إدارة أمور المجتمع وتوجيهه وتنظيمه والسير به باتجاه علاقات اجتماعية صحيحة وعادلة تقوم على أساس استقرار القانون والحد من الاضطراب أو الخروج عن القانون أو مخالفة النظام. وبكلمة مختصرة: إن وظيفة الحكومة العمل على إيجاد الظروف المناسبة لقيام علاقات اجتماعية صحيحة وسليمة.

ويعرف بعضهم الدولة بأنها عبارة عن « مجموعة من المؤسسات الاجتماعية التي يتم إيجادها بغرض حفظ النظام الاجتماعي، وهي تملك سلطة تنفيذية تامة لإجراء وظائفها الموكولة إليها »[1].

وأما تعريف الفاضل المقداد للدولة فهو: « ضرورة أن الناس إذا كان لهم رئيس مطاع مرشد فيما بينهم يردع الظالم عن ظلمه والباغي عن بغيه، وينتصف للمظلوم عن ظالمه، ومع ذلك يحملهم على القواعد العقلية والوظائف البينية، ويردعهم عن المفاسد الموجبة لاختلال النظام في أمور معاشهم، وعن القبائح الموجبة للوبال في معادهم »[2].

يتضمن مفهوم الدولة والحكومة عند الفقهاء معنيين أساسيين، وعلى طبق ذلك سار الفاضل المقداد. والمعنيان المتضمنان في مفهوم الدولة والحكومة هما: الأول: المضمون الإيجابي، وهو عبارة عن هداية الناس كافة. والثاني: هو المضمون السلبي، وهو منع الناس من الوقوع في الفساد والخطيئة. والنتيجة المترتبة على انضمام مجموع

الأمرين في بعديهما السلبي والإيجابي هو تحقق العدالة في المجتمع، والسعي للوصول إلي تحقيق الهدف الإلهي من خلق هذا الإنسان، ألا وهو سعي هذا الإنسان نحو كماله المادي والمعنوي، ووصوله إلي درجة السعادة. وفي هذا الصدد يقول الفاضل المقداد: « يحث الناس إلي فعل الطاعات، ويأمرهم بفعل الواجبات، ويزجرهم عن تركها، ويتوعدهم على فعل القبائح، ويزجرهم عنها، ويرغبهم في تركها »[٣].

ضرورة قيام الدولة

إن الإنسان من وجهة نظر كافة العلماء والمفكرين هو موجود ذو نزعة مدنية، أي أن وصوله إلى كماله الفردي ورقيه ونيله السعادة الإنسانية لا يكون إلا ضمن انخراطه في الحياة الاجتماعية، وهذا أمر مشهود لدى جميع أفراد هذا النوع. ويتحدث العلامة الطباطبائي عن ذلك فيقول: « لم ينفك الإنسان في أي يوم من الأيام عن الحياة الاجتماعية، غاية الأمر أن الأوائل من بني البشر لم يلتفتوا إلى ذلك بنحو خاص، بل تبعوا في ذلك صفاتهم الخاصة، كالاستخدام والدفاع وغير ذلك »[٤].

ينزع الإنسان عملاً نحو حفظ مصالحه، وقد يتعارض هذا مع مصالح الأخرين من أفراد المجتمع، وهذا ما يؤدي إلى الاختلاف والتنازع، فيحصل الهرج والمرج. ومن هذه النقطة بالذات تظهر ضرورة وجود حكومة قادرة تتكفل حفظ النظام الاجتماعي، وتخرج بالمجتمع عن حالة الفوضى. وينظر الفاضل المقداد إلى هذه المقولة من زوايا متعددة؛ فتارة ينظر إليها من وجهة نظر الحكماء والفلاسفة فيقول:

« الأولى: إن الإنسان مدني بالطبع، أي لا يمكن أن يعيش وحده، بل لا بد له من معاشرة؛ لافتقاره في معاشه إلى المأكل والملبس والمسكن، ويتعذر عليه تحصيلها بنفسه، وإلا لازدحم على الواحد كثير،

وهو باطل »[٥] .

ثم يقول الفاضل المقداد : إن نتيجة ذلك هو أن الإنسان لا بد له من أن يعيش في ظل حياة اجتماعية ، ولكن بسبب طبيعته التي تنزع به نحو السيطرة على سائر الناس ، كما تنزع به لتأمين مصالح نفسه ودفع المضار عنها عندما يقع التعارض بين مصالح نفسه ومصالح غيره ، فإنه ينجر إلي التنازع ، ويؤدي إلي الهرج والمرج ووقوع الفساد وهلاك هذا الإنسان ، فلا بد من وجود قانون ينظم وصول الناس إلي مصالحها ، كما لا بد من وجود حاكم يضمن سلامة تنفيذ هذا القانون[٦] .

إذا يصل الفاضل المقداد إلى مراده من إثبات ضرورة الحكومة من خلال ملاحظة ضرورة وجود النظام الاجتماعي والحفاظ عليه . ولكنه في مورد أخر يسمى لإثبات هذه الضرورة من خلال التمسك بالقواعد الفقهية ، وهي قاعدة (لا ضرر) حيث يقول :

« وحاصلها الرجوع إلى تحصيل المنافع أو تقريرها لدفع المفاسد أو احتمال أخف المفسدتين ، وفروعها كثيرة ، حتى أن القاعدة الأولى تكاد تداخل هذه القاعدة : فمنها [وجوب] تمكين الإمام لينتفي به الظلم ، ويقاتل به المشركين وأعداء الدين »[٧] .

إذاً ، حيث كانت قاعدة نفي الضرر بمعنى نفي الحكم الضرري في الإسلام ، التزم الفقهاء بأمر ، وهو أن الإسلام لم يضع أي حكم فيه الضرر على النفس أو الإضرار بالأخرين ، فلا بد من رفع الضرر عن المجتمع الإسلامي وعن أفراد هذا المجتمع . ويرى الفاضل أن من مصاديق رفع الضرر قيام الدولة القادرة ، حيث تمنع من وقوع الضرر على سائر أفراد المجتمع . وأما الطريق الأخر الذي يسلكه الفاضل المقداد لإثبات ضرورة الدولة والحكومة ، فيعتمد فيه علي التجربة ، فيقول :

« إن التجربة دلت على التعيين ، كما أشرنا إليه من الملازمة بين نصبه وعدمه وبين الصلاح والفساد ؛ ولأن

التجاء العقلاء في سائر الأمصار والأعصار عند الهرج والمرج إلى نصب الرؤساء دليل على أنه لا يدل لها، وإلا لالتجإوا إليه وقتاً ما »[٨].

وهذا الاستدلال لإثبات ضرورة الدولة يعتمد على التجربة، ولذا يصرح الفاضل المقداد باعتماده على ذلك فيقول:

« أما الصغرى، فمعلوم بالضرورة التجريبية أن الناس مع وجود الرئيس المطاع، الآمر بالطاعة، الباعث عليها، الناهي عن المعصية، الزاجر عنها، يكونون إلى الصلاح أقرب، ومن الفساد أبعد »[٩].

مشروعية الدولة

المراد من عنوان مشروعية الدولة هو البحث عن مصدر السلطة والحق في ممارسة السلطة في المجتمع، أي البحث عن الأساس الذي من خلاله يتم إلزام الناس بطاعة سلطة محددة بالذات دون غيرها، وبالاعتماد على أي شيء تصدر الدولة مقرراتها؟!

وبعبارة أخرى: البحث يقع عن مشروعية السلطة؛ لأن السلطة متى كانت شرعية كانت أوامرها ومقرراتها شرعية، وكان لزوم الطاعة لها توأماً مع الحق والحقانية. وهذا الأمر يتلازم مع استمرارية السلطة؛ لأن السلطة تتضمن في حد ذاتها عدم التساوي، ولا شيء أحوج إلى التوجيه والتبرير من عدم التساوي الناشيء من السيطرة على الحكم وتولي السلطة. فالبحث عن المشروعية يكفل الإجابة عن السؤال عن السبب في ثبوت حق إصدار الأمر لفئة من الناس، ولزوم الطاعة على غير تلك الفئة؟

تتبنى بعض الحكومات مقولة كون مصدر شرعيتها وحقانيتها هو الشعب، فيما يتبنى بعض آخر أن مصدر الحاكمية هو الله عز وجل، وأن تعيين الحاكم أمر بيد الله، وقد تجلى ذلك في كون النبي ﷺ حاكما، وكذلك الإمام أو من اذن له الإمام بذلك. وسلطة النبي على الحكم في فكر الشيعة الإمامية تعود إلى

خصوصية كونه نبياً. وبعبارة أخرى: إن النبي له ـ مضافاً إلى السلطة الدينية ـ سلطة سياسية واجتماعية، وهذه السلطة تنبع من صفة النبوة التي يتحلى بها: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ فسلطة النبي تستمد مشروعيتها من الأمر الإلهي. ويرى الفاضل المقداد أن المصدر الأساسي للحكومة ومشروعية السلطة هو الله عز وجل، ويوضح ذلك بالاعتماد على قاعدة اللطف فيقول:

« نصب الإمام واجب عقلاً على الله تعالى؛ لأنه لطف، وكل لطف واجب عليه تعالى »[١٠].

ويشرح الفاضل السيوري كلام العلامة الحلي عن إيمان الشيعة بضرورة النص على الإمام، فيقول:

« هذا إشارة إلى طريق تعيين الإمام، وقد حصل الإجماع على أن التنصيص من الله ورسوله والإمام السابق »[١١].

ويشرح الفاضل المقداد مسألة كون مصدر السلطة للإمام هو الله عز وجل والنص منه، من خلال ملاحظة صفات الإمام كالعصمة، فيقول: لأن العصمة شرط في الإمامة، والعصمة أمرٌ خفيٌ لا اطلاع عليه لأحد إلا الله، فلا يحصل حينئذ العلم بها في أي شخص هي إلا بإعلام عالم الغيب[١٢].

الأهداف والغايات المنشودة من قيام الدولة

إن الهدف الأساسي والغرض النهائي من اتفاق العلماء على ضرورة قيام الدولة في المجتمع إنما هو تنظيم شؤون المجتمع وتحقيق ثباته واستقراره. ومن الغايات الأخرى التي ذكرت لذلك وعدت ضمن الأهداف المنشودة من إقامة الدولة هو هداية البشر نحو الحق تعالى، ومنعهم من الوقوع في مخالفة أمره، ومما يؤدي بهم إلى الهلاك.

وفي معرض حديث الفاضل المقداد عن الفارق بين الحكم والفتوى يدخل في بيان الهدف الأساسي والغاية من إقرار القوانين، وأن أحكام الإسلام

وقوانينه إذا كانت مما يقبل النقض، فإن هذا سوف يعيق الناس عن الوصول إلى الغاية المنشودة يقول:

« فيؤدي إلى عدم استقرار الأحكام، وهو مناف للمصلحة التي لأجلها شرع نصب الحكام من نظم أمور أهل الإسلام »[١٣].

وعند قيام الفاضل المقداد بعرض الآراء والنظريات المختلفة حول ضرورة وجود الحاكم والإمام، يوضح رأي الإمامية الذي ينطلق من ملاحظة الغايات والأهداف المنشودة من إقامة الدولة، فيقول:

« إن من عرف عوائد الدهماء، وجرب قواعد السياسة، علم ضرورة أن الناس إذا كان لهم رئيس مطاع مرشد فيما بينهم، يردع الظالم عن ظلمه، والباغي عن بغيه، وينتصف للمظلوم من ظالمه، ومع ذلك يحملهم على القواعد العقلية والوظائف الدينية، ويردعهم على المفاسد الموجبة لاختلال النظام في أمور معاشهم، وعن القبائح الموجبة للوبال في معادهم، بحيث يخاف كل مؤاخذته على ذلك، كانوا مع ذلك إلى الصلاح أقرب ومن الفساد أبعد. ولا نعني باللطف إلا ذلك، فتكون الإمامة لطفاً »[١٤].

والأهداف والغايات التي يمكن ذكرها ــ بملاحظة كلمات الفاضل السيوري هذه ـ هي التالية:

١ ـ إرشاد الناس وهدايتهم إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وأخرتهم.

٢ ـ إيجاد الأمن الاجتماعي من خلال المنع من وقوع الظلم من قبل أصحاب السلطة والنفوذ والطغاة.

٣ ـ إقرار العدل الاجتماعي عبر نصرة المظلوم والأخذ بحقه من الظالم، ووضع كل شيء في محله الذي ينبغي له.

٤ ـ هداية الناس إلى ما لا تدركه عقولهم، والرقي بهم في درجات المعرفة والعلم.

٥ ــ تعريفهم بواجباتهم اليينية وفرائضهم ومسؤولياتهم الشرعية؛ لأجل الوصول إلى مجتمع متدين.

٦ ــ الحيلولة أمام وقوع الفساد الأخلاقي، السياسي والاقتصادي في أمور حياتهم مما يوجب الإخلال بنظام حياتهم الدنيوية، وخسارتهم لحياتهم الأخروية.

٧ ــ إقامة الحدود ومجازاة من يتخلف منهم، وهو الذي يضمن التزام الناس بالقانون الذي سنه الله لهم.

أنواع الدول

لقد اختلفت وتنوعت النظم المعتمدة لإدارة الدولة على مر التاريخ البشري. واعتماد كل حاكم في الوصول إلى السلطة إنما كان على أسس واعتقادات بناها واعتقد بها، وشكلت أساس حكمه ودولته: ففي نوع من هذه النظم كان الحكم فردياً والسلطة كلها بيد الحاكم الفرد، فاتخذت شكلا استبدادياً على المجتمع. وأما النوع الثاني، فقد كان يتم عبر قيام مجموعة من الناس من أصحاب النفوذ بإدارة الأمور بعنوان أنهم أفضل من سائر أفراد المجتمع.

وأما النوع الثالث من الدول، فهو ما كان يتم عبر انتخاب الأعم الأغلب من الناس لأفراد محددين ليكون لهم الإشراف على إدارة المجتمع.

والنوع الأول هو ما يسمى بالنظام الملكي، وكان يتسم بالاستبداد، وهو النوع الغالب علي مر التاريخ.

وأما النوع الثاني، فهو ما يسمى بالنظام الأرستقراطي.

وأما النوع الثالث، فهو الذي يسمى بالنظام الديمقراطي.

والإسلام أيضاً ـ بوصفه ديناً جامعاً يتبنى ضرورة قيام الدولة؛ لأنها من عوامل رقي المجتمع ـ أكد على ذلك من خلال بعثة الأنبياء وإنزال شريعة الإسلام لأجل الوصول إلى غاية هي التوحيد وإقامة المجتمع الموحد، وكذلك من خلال التأكيد على إقامة الدولة الإلهية بغرض إقامة العدل والقسط، وهداية الناس إلى الله عز وجل، وإجراء الحدود الالهية.

ألف: الدولة المنشودة

للفاضل المقداد تكوينه الفكري الذي ينطلق من النظرية الإسلامية، أو فقل الإمامية؛ ولذا يرى ضرورة الحاكمية الإلهية في الدولة. ونتيجة لإيمانه بالعلاقة الوثيقة بين الدين والسياسة، وضرورة أن تكون الدولة محل اهتمام الدين، يرى أن الدولة المنشودة هي الدولة التي تتم من خلال النص الإلهي على شخص بعينه، أي عبر التعيين الإلهي؛ وذلك على أساس قاعدة اللطف التي تضع الناس تحت ظل نعمة الدولة والحاكم الذي يمتاز بأنه يتصف بالتعيين الإلهي، وهذا ما تجلى بشكلين هما النبوة والإمامة. ولذا يقول الفاضل السيوري:

« فلا بد من معاملة وعدل تجمعها قوانين كلية متفق عليها بينهم، بحيث يرجعون إليها عند النزاع، وتلك هي الشريعة؛ فوجب في العناية الإلهية في العناية الإلهية وجودها. إن تلك الشريعة لا يجوز تفويضها إلى أشخاص النوع، وإلا لوقع النزاع في كيفية وضعها- فلا يحصل المطلوب، فوجب أن تكون مفوضة إلى القدير الخبير. ولما كان مما يتعذر مشافهته، وجب وجود واسطة بينه وبينهم في تبليغها، وذلك هو النبي »[١٥].

ويقول: « وإنما النزاع في تفويض ذلك إلى الخلق، لما في ذلك من الاختلاف الواقع في تعيين الأئمة، فيؤدي إلى الضرر المطلوب زواله »[١٦].

وأما في عصر الغيبة، فان أمر مسؤولية قيام الدولة إنما هو لنواب الإمام، وهم الفقهاء ممن تجتمع فيهم الشروط، وذلك بالإذن الصادر من الإمام. وواقع الحال هو أن الفاضل المقداد يبني بحثه عن الدولة والحكم في عصر الحضور اعتماداً منه على النظريات الكلامية. وأمّا في عصر الغيبة، فمضافاً إلى ما تنصّ عليه القواعد الكلامية، فإنّه يوسّط بعض المباني الفقهي لبيان فقه الدولة.

ب : الدولة غير المشروعة

في الجهة المقابلة ، وحيث كانت العدالة شرطاً في الحاكم والقائد ؛ لأنّ بها يمكن هداية المجتمع وتنظيم أموره السياسية والاجتماعية ، فلا مشروعية لحكم غير المعصوم ، بل هو حكم مغتصب . ويقول الفاضل المقداد في بيان ذلك :

« غير المعصوم ظالمٌ ولا شيء من الظالم بصالح للإمامة ، فغير المعصوم ليس بصالح للإمامة ، وهو المطلوب . بيان الصغرى : أنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وغير المعصوم كذلك . وأمّا الكبرى فلقوله تعالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، والمراد عهد الإمامة لقوله تعالى : ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ »[١٧] .

ج : أنواع الدولة المنشودة

١ ـ دولة الأنبياء :

لما كانت الدولة الإسلامية تحمل نظاماً يهدف إلى غايات خاصّة يسمى إلى تحقيقها ، كان تدبير الشؤون السياسية للمجتمع مبنيّاً على الخلافة الإلهية ونفي سلطة وحكم كلّ من لم يكن معصوماً ، وهذا من الاعتقادات الضرورية . لقد صدر الحكم الإلهي بعدم جواز حكم الطاغوت على أهل الإيمان ، ويرى أنّ الحاكمية إنّما هي للأنبياء والصالحين : « إن الحكم إلّا لله » .

إنّ قيام الدولة بوظيفتها الأساسية ـ وهي الوصول إلى الأهداف العليا لدين الإسلام ـ يتوقّف على التخطيط الصحيح ، وعلى وجود جهاز تنفيذي يكفل تنفيذ القوانين الاجتماعية وإقرار النظام . وعلى هذا الأساس ، لو أنّنا غضضنا الطرف عن السيرة العملية للنبي الأكرم الذي أقام أوّل دولة إسلامية في المدينة ، فإنّ الفقهاء والمتكلّمين يطلقون مفردة الإمام على الحاكم وقائد المجتمع الإسلامي الذي تكون وظيفته المعنوية هداية الناس وإدارة الدولة وتدبير أمور المجتمع ، وهذا ما لا ينطبق إلّا على الأنبياء والأئمّة المعصومين . وانطلاقاً من هذه

النقطة بالذات، واستناداً إلى قاعدة اللطف، يستدلُّ الفاضل المقداد على النبوة والإمامة بهذا الطريق، ويقسّم وظائف النبي وأدواره ـ فيما يرجع إلى شؤون الاجتماع ـ إلى أقسام ثلاثة، ويوضحها بالنحو التالي:

« تصرّف النبي صلى الله عليه وآله: تارةً بالتبليغ، وهو الفتوى؛ وتارةً بالإمامة، كالجهاد والتصرّف في بيت المال؛ وتارةً بالقضاء، كفصل الخصومة بين المتداعيين بالبينة أو اليمين والإقرار. وكلّ تصرّف في العبادة فإنّه من باب التبليغ، وقد يقع المتردد في بعض الموارد بين القضاء والتبليغ: (فمنه) قوله صلى الله عليه وآله « من أحيى أرضاً ميتة فهي له ». فقيل تبليغ وإفتاء، فيجوز الإحياء لكلّ أحد، أذن الإمام فيه أو لا، وهو اختيار بعض الأصحاب. وقيل تصرّف بالإمامة، فلا يجوز الإحياء إلّا بإذن، وهو قول الأكثر. (ومنه) قوله لهند بنت عتبة ـ امرأة أبي سفيان ـ حين قالت له صلى الله عليه وآله: إنّ أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وولدي ما يكفيني. فقال لها: خذي لك ولولدك ما يكفيك بالمعروف. فقيل: إفتاء، فيجوز المقاصة للمسلّط بإذن الحاكم وبغير إذنه. وقيل: تصرّف بالقضاء، فلا يجوز الأخذ إلّا بقضاء قاض. ولا ريب أنّ حمله على الإفتاء أولى؛ لأنّ تصرّفه صلى الله عليه وآله بالتبليغ أغلب، والحمل على الغالب أولى من النادر. فإن قيل: فلا يشترط إذن الإمام في الإحياء حينئذٍ. قلنا: اشتراطه يعلم من دليل خارج لا من هذا الدليل »[١٨].

نعم؛ لا بدّ من التنبيه إلى أنّ مراده من شأن التبليغ عند النبي هو أنّ النبي بعنوان أنّه الهادي لهذه الأمّة ورسول من الله، فهو يتلقّى الأحكام من الله عزّ وجلّ بواسطة الوحي، ثمّ يقوم ببيان ذلك للناس. ولذا كان خطاب النبي للناس كافة في كل زمان ومكان، ولا بدّ لكل فرد من أن يتأسّى بالنبي، ولا ضرورة لأن يتلقّى تكليفه من الدولة الإسلامية والإمام. وأمّا في شؤون الدولة، فحيث كان على الحاكم أن يتصرّف بحسب مقتضيات

زمانه ، وعلى أساس ذلك يصدر منه الحكم ، فلا بدّ في العصور التي تلت عصر النبي من الرجوع إلى الإمام والحاكم ، وأخذ الإذن منه . ويورد الفاضل المقداد مثالاً على ذلك :

« ومنه : قوله ﷺ : من قتل قتيلاً فله سلبه . فقيل : فتوى فنعم ، وهو قول ابن الجنيد . وقيل تصرّف بالإمامة ، فيتوقّف على إذن الإمام ، وهو أقوى هنا ؛ لأنّ القضيّة في بعض الحروب ، فهي مختصّة بها »[١٩] .

وبعبارة أخرى : إنّ الفتوى التي تصدر من النبي ليس لما مضى من الزمان أي دخل في تغييرها ؛ لأنّ النبي قام بإبلاغ الحكم دون نظر منه إلى أي زمان أو مكان . وأمّا الحكم الحكومتي أو الولائي ، فحيث كانت أحكام الدولة تقوم على أساس مصالح ومفاسد ذلك الوقت ، وعلى أساس ملاحظة مقتضيات الزمان والمكان ، كان بالإمكان تبدّلها تبعاً لتبدّل الظروف وخصوصيات الزمان والمكان ، فلا بدّ من الرجوع إلى الحاكم لأخذ الحكم منه ومعرفة التكليف .

٢ ـ دولة الإمام المعصوم :

الإمامة من أمّهات القضايا الكلامية ، بل هي أساس مذهب التشيّع . والإمام عند الشيعة هو القائد السياسي والقدوة الدينية ، وقد اجتمعت الصفتان في شخصيّته وإليه يُرجع في كلا الأمرين . وكانت الشيعة منذ نشأتها الأولى ترجع إلى الإمام المعصوم وتتلقّى الأمر منه فيما يرجع إلى كلّ تحرّك تقوم به أو أي عمل سياسي تتحرّك من خلاله ، حتى في مثل قبول الولاية من قبل الخلفاء في ذلك الزمان ؛ فقد كانت الشيعة تأخذ الإذن من الإمام المعصوم في ذلك . يقدّم الفاضل المقداد الإمام متّخذاً طريق الفقهاء والمتكلّمين ، ويعتمد على إيراد التعريف الذي قدّمه الخواجة نصير الدين الطوسي للإمامة ، ثمّ يقوم بعد ذلك بشرح ذلك التعريف . أمّا تعريف الطوسي فهو :

« الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخصٍ من الأشخاص نيابة عن النبي صلى الله عليه وآله ، وهي واجبة عقلاً ؛ لأنّ الإمامة لطف » .

وأمّا ما يوضحه الفاضل المقداد من هذا التعريف فهو قوله :

« كونها (عامّة) : فصل يفصلها عن ولاية القضاة والنوّاب ؛ و (في أمرو الدنيا) : بيانٌ لمتعلّقها ، فإنّها كما تكون في الدين فكذا في الدنيا ؛ وكونها (لشخص) إنساني : فيه إشارة إلى أمرين : أحدهما : أنّ مستحقّها يكون شخصاً معيّناً معهوداً من الله تعالى ورسوله ، لا أي شخص اتفق »[٢٠] .

يتفق المسلمون كافّة من الشيعة والسنة على سعة دائرة الصلاحيات والوظائف الموكلة إلى النبي الأكرم في الأمور السياسية والاجتماعية ، وعلى مرجعيته الدينية للمجتمع ، ويقوم الفاضل المقداد بتطبيق ذلك على الإمام فيقول :

« قاعدة : ما فعل صلى الله عليه وآله ويمكن فيه مشاركة الإمام دون غيره ، فالظاهر أنّه على الإمام ، كما كان صلى الله عليه وآله يقضي الديون على الموتى لكونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهذا حاصل في الإمام »[٢١] .

بناءً على ذلك ـ وعلى أساس هذا المبنى ـ فللإمام جميع الصلاحيات التي هي من شؤون ولاية النبي ، سواء أكانت ممّا يرجع إلى أمر التبليغ (الفتوى) ، أم إلى الحكم أم القضاء ، ولا يستثنى من ذلك سوى الموارد التي تنصّ آيات القرآن الكريم أو كلمات سيّد المرسلين على أنّها من الصلاحيات الخاصّة بالنبي ، كمسألة تلقّي الوحي وإبلاغه للناس .

وتعريف الفاضل المقداد للإمام يمتاز بكونه قابلاً للإطلاق على كلّ من كان إماماً ، إلّا من لم يكن موصوفاً بالعصمة ، حيث يعرّفه بالقول :

« فهي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخصٍ إنسانيّ خلافة عن النبي »[٢٢] .

على أساس ما تقدّم ، يظهر أنّ

الإمـام الـذي لـه هـذه المنزلـة فـي المجتمع ـ والذي هو خليفة النبـي ـ لا بدّ وأن يمتلك من الصفات ما يمتـاز بـه عن الآخرين ، فلا تتوفّر في غيره ، ولذا يقول : « قال أصحابنا الإماميّة إنّه علـي بـلا فصـل ، للـنص الجلـي والخفـي ، واجتمـاع الشـرائط التـي هـي العصـمة والأفضليّة »[٢٣] .

ومعرفـة هـذه الصـفات تنحصـر بالنص والرجوع إلـى تعـاليم الإسـلام ، ولا يمكن للنـاس الاطـلاع عليهـا دون ذلك :

« وقـال أصـحابنا الإماميّـة : لا طريق إلّا النص ، وهو حق »[٢٤] .

وخلاصـة الكـلام فـي مسـألة الإمامية وولاية الإمام هي أنّ الإسـلام أقرّ مجموعـة مـن الأحكـام والتكـاليف التي لا بدّ وأن يقتـرن معهـا مـا يضـمن تنفيـذها ، وعـن طريـق اللطـف الـذي يرجع إلى الحكمة الإلهيّـة يجـب علـى الله عزّ وجلّ أن يعيّن للناس من له من الصفات مـا يؤهّلـه للقيـام بتنفيـذ هـذه الأحكام ، ليتمكن الناس ـ ومن خـلال الرجوع إلى الوحي ـ مـن معرفـة وليّهم وإمامهم في الـدين والـدنيا ، فيرجعـون إليه ويبايعونه . والإمام والقدوة ـ الـذي علـى عاتقـه تقـع وظيفـة إجـراء أحكـام الإسلام ونظم الأمور في المجتمع ـ لا يكـون إلّا هـو الحـاكم السياسـي والديني ، ويتمّ تعيينه من قبل الشارع ، إمّا بذكره باسمه ، وإمّـا بـإعلان صـفاته التي تنحصر به .

٣ ـ الدولة في عصر الغيبة :

يظهر ممّا تقدّم أنّ عقيـدة الشـيعة هـي أنّ الأئمّـة المعصـومين هـم ورثـة النبي في شؤونه كافّة ، ولا يستثنى من ذلك إلّا تلقّيه الوحي دونهم . ولا يصحّ اختصـار الولايـة السياسـية والرئاسـة الدنيوية وخلافـة النبـي فـي إدارة أمـور المجتمع ، بل بناءً على التعريـف الـذي يتبناه الكلام الشيعي للإمامة ـ كما مـرّ ذكـره فـي كلمـات الفاضـل المقـداد ـ فلهـم ـ مضـافاً إلـى ذلـك المنصـب ـ الولاية المعنوية ؛ فهـم هـداة المجتمـع إلـى الـدين ، ومـنهم نتلقـى التعـالم

الدينية الصحيحة .

ولكنّ البحث المهم هنا هو عن الحكم والولاية في عصر الغيبة . ولا يخفى أنّ الضرورة التي اقتضت وجود الحاكم والولي في عصر الحضور باقية إلى عصر الغيبة ، بل إنّها تتأكد في عصر غيبة المعصوم ، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام :

« وإنّه لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن »[٢٥] .

ويثبت هذا الكلام ـ وبوضوح ـ ضرورة وجود حاكم على الناس ، والولاية السياسية حتى لو لم تكن مشروعة ، فإنّها أفضل من الهرج والمرج وعدم وجود حاكم وولي للمجتمع الإنساني ؛ لأنّ الدولة وإن لم تملك صفة الشرعية ، ولكنّها تسدّ بعضاً من النقص أو الخلل الذي يقع في المجتمع ، وتقوم بتوفير بعض حاجات المجتمع . ثمّ إنّ الفاضل المقداد بعد أن يقوم ببيان ضرورة قيام الدولة ، والاستدلال بالتجربة البشرية على الحاجة المستمرة إلى وجود رئيس حاكم حذراً من الوقوع في الهرج والمرج ، يبيّن لزوم ولاية الفقهاء في عصر الغيبة بقوله :

« إنّ الدين والملك توأمان لا ينفع أحدهما بدون الآخر ، فاقتضت الحكمة وجودهما في شخص واحد ، وإلّا لزم نقض غرض الحكيم عند انفكاك العالم المجتهد عن السلطان ، وحضور الواقعة المحتاجة إلى الفتوى والحكم معاً في الحال »[٢٦] .

إذاً ينصّ الفاضل المقداد في كلامه هذا على عدم إمكان الفصل بين الفقاهة والسياسة ، ويرى ضرورة أن تكون السلطة الاجتماعية وأمور الدولة بيد العلماء وفقهاء الشيعة ؛ لأنّه في الموارد التي تقتضي الضرورة والحاجة التوأمة بين القانون وتطبيقه ، يكون الفصل بينهما نقضاً للغرض ؛ لأنّ الفرض هو ضرورة نظم المجتمع وهداية الناس . إذاً ، فالضرورة تقضي إمّا أن يكون السلطان فقيهاً وإمّا الفقيه سلطاناً .

إنّ الزعامة السياسية في الفقه

الشيعي موكولة إلى الفقيه العادل، والدليل على هذا الأمر هو أنّ وظيفة الدولة ومهمتها الأساسية هي مطابقة أمور المسلمين من تعاليم الشريعة. إنّ الهدف الذي تسعى إليه الدولة الدينية في عصر الغيبة ليس فقط تأمين حاجات المجتمع والأمن الاجتماعي بأيّ نحوٍ كان وبأيّ ثمن، بل لا بدّ وأن تتطابق أمور المجتمع والعلاقات القائمة بين أفراده مع أحكام الدين ومع القيم التي ينشدها الدين، وهذا الأمر لا يتمّ إلّا إذا كان الحاكم ـ مضافاً إلى اتصافه بامتلاك الكفاءة الإدارية ـ ممّن يوصف بأنّه أعلم الناس بأحكام الله، أي أن يكون ذا فقاهة وإحاطة بالقضايا السياسية والاجتماعية.

وعندما يتعرّض الفاضل المقداد للحديث عن ضرورة وجود القانون، يتحدّث عن ضرورة وجود سائس لهذا المجتمع، ويرى نائب الإمام إلى جانب الإمام، وأنّ له نفس تلك الصلاحيات: «.. ولا بدّ لها من سائس، وهو الإمام ونوّابه...»[٢٧]، أي مضافاً إلى ضرورة وجود القانون، لا بدّ من وجود السائس، الذي هو عبارة عن الإمام أو نائبه.

ولو سأل سائلٌ هنا: من هم نوّاب الإمام؟ أو عندما يراد التشكيك في هذا الكلام عبر القول بأنّ المراد من النائب هو النائب الخاص، أي المولّى من قبل الإمام في عصر الحضور، فإنّ جواب ذلك وتحديد المراد من نوّاب الإمام في عصر الغيبة يظهر من خلال ملاحظة سائر كلمات الفاضل المقداد: ففي بحث صلاة الجمعة يرى أنّ للفقهاء من المنصب ما تكون معه مسألة إقامة صلاة الجمعة أمراً بسيطاً. يقول: «لأنّ الفقيه المأمون كما ينفّذ أحكامه حال الغيبة، كذا يجوز الاقتداء به في الجمعة»[٢٨].

مضافاً إلى ذلك، يقول الفاضل المقداد عند ذكره لتعريف الإمامة وشرحه لعبارة «بحق الأصالة»:

«واحترز بهذا عن نائب يفوض إليه الإمام عموم الولاية؛ فإنّ رئاسته عامة لكن ليست بالأصالة»[٢٩].

وفي واقع الأمر، فإنّ دليل نيابة الفقيه عن الإمام المعصوم هو الذي يُمكنّه من القيام بأمور الدولة والتدخّل في الشؤون السياسية، وله ـ كالإمام ـ الزعامة الدينية والسياسية.

أدلة حكومة الفقيه

يُشكل الدليل العقلي المبني على أسس منطقية البناء الأساسي لأدلّة مقولة حكومة الفقيه وولايته. لقد تعامل فقهاء الشيعة ومتكلّموهم مع مسألة حكومة الفقيه وزعامته السياسية على أنّها من الأمور الضرورية، ويشهد لذلك تعاملهم معها بوصفها أمراً مسلّماً، والانطلاق في البحث عن شروط الحاكم أو عن دائرة صلاحياته. وبعبارة أخرى: إنّ المسلّم به أصل ضرورة لزوم وجود حاكم ورئيس عام للمجتمع الإسلامي، وهذه الضرورة مستمرّة في كل مكان أو زمان قام فيه الاجتماع الإسلامي. وكما اعتمد إثبات الولاية للفقهاء في عصر الغيبة على الأسس النظرية في المسائل الكلامية والعقلية والمنطقية، فقد شكل القرآن وروايات النبي والأئمة المعصومين شاهداً، ولذا بحث الفقهاء في النصوص الدينية التي تشهد على ذلك. وعلى هذا سار الفقيه العالم والمتكلّم الفاضل السيوري، فاعتمد ـ بعد تقديمه للأدلّة العقلية وأسس دلالتها ـ على الأدلة النقلية.

الدليل العقلي

في معرض حديث الفاضل المقداد عن دائرة صلاحيات الفقهاء ووظيفة إقامة أحكام الإسلام في عصر الغيبة، ينقل عبارة في كتاب (الشرائع). وبعد أن يشرح أدلّته على مشروعية ولاية الفقيه على أمور المجتمع، يطرح دليله العقلي تحت عنوان النظر، فيقول:

« وأمّا النظر، فهو أنّ المقتضي لإقامة الحد قائم في صورتي حضور الإمام وغيبته، وليست الحكمة عائدة إلى مقيمه قطعاً، فتكون عائدة إلى مستحقه أو إلى نوع المكلّفين. وعلى التقديرين لا بدّ من إقامتها مطلقاً »[٣٠].

في الواقع يختصر الفاضل المقداد في كلماته هذه جميع كلمات وعبارات الفقهاء والمتكلّمين، فهي لبّ الكلام وأساسه، أي أنّ تمام الأدلّة والبراهين التي تثبت لنا ضرورة إقامة الدولة وتطبيق قوانين الإسلام في عصر الحضور ـ والتي تمّ الاستدلال بها ـ هناك تجري في عصر الغيبة، ولا يختصر على بال أحد أنّه لا بدّ للمجتمع الإسلامي في عصر حضور الإمام من قيام الدولة، والعمل على تطبيق قوانين الإسلام من خلال الإقرار بضرورة وجود سلطة سياسية وقيادة دينية، وأنّ هذه اللابديّة ترتفع في عصر الغيبة.

إذاً، من البديهي أنّ الظروف التي قضت في عصر الحضور بالحاجة إلى الدولة والسلطة، تقضي أيضاً بحاجة المجتمع إلى الدولة في عصر الغيبة، وهي دولة تقع بيد من لهم القدرة العلمية والعملية على إجراء أحكام الإسلام وتحقيق أهداف الدين وآماله.

ودليل الفاضل المقداد يتجه إلى بيان أنّ فائدة إقامة أحكام الإسلام وتطبيق الحدود لا ترجع إلى حاجة المقيم لها ومن يقوم بتطبيقها، بل إلى المستحق لهذا الحد، وهذا الأمر من عوامل تقوية أحكام الإسلام والحد من الانحراف والفساد.

إذاً، لا بدّ في كل عصر ومصر من القيام بإحياء أحكام الدين الاجتماعية والسياسية، وكل ما قيل عند البحث والاستدلال لإثبات ضرورة قيام الدولة ووجود الحاكم يعدّ من مؤيّدات هذا المقولة. ويقوم الفاضل السيوري ـ عند شرحه لكلمات العلّامة ـ بذكر الوجه العقلي في كلام العلّامة، فيقول:

« محتجّاً بأنّ تعطيل الحدود يفضي إلى ارتكاب المحارم وانتشار المفاسد، وذلك مطلوب الترك في نظر الشارع »[٣١].

الدليل النقلي

يذكر الفاضل المقداد ابتداءً الرواية المعروفة والتي رواها عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث يقول:

« ينظران إلى من كان منكم ممّن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا ، فليرضوا به حكماً ، فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً ، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنّما استخفّ بحكم الله وعلينا ردّ ، والراد علينا رادٌّ على الله تعالى ، وهو على حدّ الشرك بالله » . ثمّ بعد ذلك يؤكد على قول الشيخ بأنّ على الفقهاء إقامة الحدود في عصر الغيبة ، ويرى في العمومات النقلية والأدلّة العقليّة ما يؤيّد قول الشيخ ، وهذه العمومات هي :

١ ــ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله من قوله : « العلماء ورثة الأنبياء »[٣٢] . وتوضيح دلالة الرواية بأن يقال : إنّ المسلّم به أنّ العلماء لم يرثوا من الأنبياء مالاً ، فلا بدّ وأن تكون هذه الوراثة وراثة العلم أو الحكم . والأوّل هو تعريف للمعرّف وتوضيح للواضح ، فتعيّن أن يكون المراد هو الثاني ، وهو المطلوب . أمّا كون وراثة العلم من توضيح الواضحات ؛ فلأنّ لدى العلماء من العلم ما لا يحتاج معه إلى التمسّك بقول النبي لإثبات كونهم ورثته في ذلك . إذاً فلا بدّ وأن يكون مراد النبي الوراثة في الحكم ومنصب الولاية على المجتمع الإسلامي وتطبيق أحكام الشرع .

٢ ـ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله ، وهو قوله : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » . والاستدلال بذلك من جهة أنّه من الواضح أن أنبياء بني إسرائيل لهم إقامة الحدود[٣٣] .

وفي الواقع يرى الفاضل المقداد أنّ وجه الشبه بين علماء أمّة النبي صلى الله عليه وآله وبين أنبياء بني إسرائيل إنّما هو بلحاظ أنّ لهم هذا المقام والمنصب . إذاً ، فعلماء أمّة النبي صلى الله عليه وآله ـ وطبقاً لحديث النبي ـ لهم مثل هذا المقام ، ولهم هذه الولاية .

من هذا كلّه يظهر لنا أنّ الفاضل المقداد ـ مضافاً إلى ما أسّس عليه من ولاية النبي والأئمّة بالاستناد إلى المباني الكلاميّة والفقهيّة التي يتبنّاها ـ يرى أنّ الزعامة السياسية للفقهاء في عصر الغيبة هي من الأمور الثابتة .

وطريق إثباته لذلك يعتمد أيضاً على ملاحظة مقولة ضرورة قيام الدولة ووجود الحاكم والسلطة السياسيّة في كل مجتمع وي كلّ عصر ومصر، هذه الضرورة التي تثبتها المباني الكلامية للإمامة، والتي تخضع لمقولة ارتباط الدين بالسياسة. كما يعتمد في إثبات ذلك على الأدلّة والنقلية التي تحدّد منزلة ودور الفقيه في عصر الغيبة بعنوان كونه الحاكم والزعيم السياسي للمجتمع الإسلامي. مضافاً إلى ذلك تتجلّى نظرة الفاضل إلى مقولة ارتباط الدين بالدولة بعملية دمج لوظيفة المجتهد مع السلطان. ويدلّ على هذا ملاحظة فقدان النظام السياسي المستقر في عصره وعدم اهتمام الحكام آنذاك بالشيعة وبتعاليم مذهب التشيّع، الأمر الذي يعطي هذه النظريّة مزيداً من نقاط القوّة. ويضاف إلى ذلك وأخيراً أنّ احتكاك الفاضل المقداد بتعاليم الفلسفة ساهم في بلورة هذا الجانب.

د ـ الدولة غير المشروعة

حيث كانت الدولة التي تقوم على أساس الحاكمية الإلهية هي التي تتمتّع بالشرعية من وجهة نظر الفقه الشيعي والفكر السياسي الإسلامي، والتي لا بدّ لها من أن تبني على هذا الأساس إدارتها لشؤون المجتمع الإسلامي، فهذا يعني أنّ الدولة التي ترجع في أساسها النظري إلى الحاكمية غير الإلهية لا تملك أي شرعية. وفي معرض حديث الفاضل المقداد عن المحدثات والبدع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وبيان الموارد المحرّمة منها يقول:

« المحرّم هو كل بدعة تتناولها قواعد التحريم وأدلّته من الشريعة »[٣٤].

ويعتبر أنّ من مصاديق البدعة المحرّمة تقديم غير الأئمّة المعصومين عليهم السلام وأخذ مناصبهم، واستئثار ولاة الجور بالأموال ومنعها عن مستحقّها، وقتال أهل الحق وتشريدهم وإبعادهم، والقتل على

الظنّة ، والإلزام ببيعة الفسّاق والمقام عليها وتحريم مخالفتها[٣٥] .

وبعبارة أخرى : كل من لم يصل إلى الحكم والسلطة عن طريق الحاكمية الإلهية فهو ظالم جائر ، والأصل الأوّلي في التعامل مع مثل هؤلاء الحكام هو عدم إطاعتهم ، والامتناع عن الامتثال لأوامرهم ونواهيهم .

وللفاضل المقداد بحيث من أهل السنّة حول ما يتبنّوه من طريقٍ للوصول إلى الخلافة ومقام السلطة ، فيقول :

« طريق تعيين الإمام : قالوا : البيعة أو الاستيلاء طريق إلى ذلك ، مستدلّين بحصول المقصود من الإمامة ، وهو دفع الضرر بنصب الرئيس أو استيلائه » .

ويجيب عن ذلك بقوله :

« والجواب بالمنع من حصول المقصود ، بل قد يكن موقعاً في الضرر ، بأن يبايع كل فرقة شخصاً ، أو يستولي كلّ شخص على خطّة ، ويقع بينهم التحارب والتجاذب »[٣٦] .

والحاصل أنّ نتيجة ما تقدّم هو أنّ كل حاكم وكل صاحب سلطة إذا لم يكن من المعصومين أو لم يكن ممّن أخذ الإذن منهم فهو حاكم ظالم وجائر ؛ وذلك لأنّه قد استولى على حق الأئمّة المعصومين وغصبهم سلطانهم ، والسلطة لا تكون حينئذٍ في يد أهلها ولا في محلّها . ثمّ يقول :

« غير المعصوم ظالم ولا شيء من الظالم بصالح للإمامة ، فغير المعصوم ليس للإمامة ، وهو المطلوب »[٣٧] .

وكذلك حديث الفاضل المقداد عن الأموال ؛ فإنّها حقٌّ وملكٌ لدولة الحق ، ولا يملك الحاكم الجائر شيئاً منها شرعاً . ولذا يقول :

« إنّ جميع ما في يد المتغلّب من الأموال فللإمام انتزاعه منه كيفما كان ، طوعاً وكرهاً »[٣٨] .

ووظيفة المسلم في ظلّ مثل هذه الحكومة العمل بالتقية والحذر ، سعياً لحفظ نفسه ودينه وماله وكرامته هو

والآخرين ، إلّا أن يكون في التقية خطرٌ على نفس محترمة ، حيث يرى الفاضل المقداد أنّها تصبح من التقية المحرّمة[٣٩] .

ولا يقتصر أمر دولة الجور على فقدانها للشرعية الإلهية والدينية ، وكون سلطتها سلطة غاصبة ، بل إنّها توكل شؤونها إلى من لا أهليّة له لتولّي هذه المناصب والمقامات ،[٤٠] وتلزم الناس بتعظيم وإظهار الاحترام لمن لا يليق له ذلك[٤١] .

وعليه ، وبناءً على جميع ما تقدّم ، يظهر أنّ دولة غير المعصوم التي لا تتمتّع بالإذن ـ حتى لو كان إذناً عاماً ـ من الإمام المعصوم لتدبير شؤون المجتمع السياسية والاجتماعية ، هي دولة غير مشروعة ، ولا تشكل مصداقاً للدولة المنشودة ، ولا بدّ للمسلم من السعي لمحاربة مثل هذه الدولة ، وحيث كان قيام الدولة أمراً ضرورياً ، فإنّ عليه السعي إلى إقامة حكومة العدل المنشودة .

وخلاصة الكلام في هذا الفصل هي أنّ النظريّة التي يتبنّاها الفاضل المقداد عن الدولة في عصر الحضور تقوم على ملاحظة المباني والآراء الكلامية التي يتبنّاها ، ومنها ملاحظة مقولتي الزمان والمكان وارتباط الدين بالسياسة ، وأمّا حديثه عن الدولة في عصر الغيبة ، فإنّه ـ انطلاقاً من خصوصية العصر الذي كان يعيش فيه ، والذي امتاز بعدم الاستقرار ـ يصرف جلّ اهتمامه لبيان وتأكيد دور الفقيه في إقامة الدولة في عصر الغيبة ، وتوضيح أدلة ذلك دون مزيد تعرّض للحديث عن الدولة الجائرة وغير الشرعية .

الهوامش :

[١] علي محمد أيزدي ، دين و حكومت (مجموعة مقالات) : ٣٢٩ .

[٢] النافع يوم الحشر : ٤٧ .

[٣] الاعتماد : ٨٧ .

[٤] العلامة السيد محمد حسين الظباظبائي ، روابط اجتماعي در اسلام : ٦ .

[٥] اللوامع : ١٦٧ .

[٦] « للمصلحة التي لأجلها شرع نصب الحكام من

نظم أمور أهل الإسلام » (نضد القواعد الفقهيـة : ٤٩١) .

[٧] المصدر نفسه : ٨١

[٨] اللوامع : ٢٦٤ .

[٩] اللوامع : ٢٦٢ .

[١٠] اللوامع : ٢٦٢ ؛ النافع يوم الحشر : ٤٧ .

[١١] المصدر نفسه : ٤٨ ـ ٥١ .

[١٢] المصير نفسه : ٥٨ .

[١٣] نضد القواعد الفقهية : ٤٩١ .

[١٤] النافع يوم الحشر : ٤٧ .

[١٥] اللوامع : ١٦٧ .

[١٦] النافع يوم الحشر : ٤٧ .

[١٧] اللوامع : ٢٧٠ .

[١٨] نضد القواعد الفقهية : ١٥٨ .

[١٩] المصدر نفسه .

[٢٠] النافع يوم الحشر : ٤٦ .

[٢١] نضد القواعد الفقهية : ١٥٧ .

[٢٢] اللوامع : ٢٥٤ .

[٢٣] المصدر نفسه : ٢٥٩ .

[٢٤] إرشاد الطالبين : ٣٣٢ .

[٢٥] نهج البلاغة ، الخطبة ٤٠ .

[٢٦] اللوامع : ٢٦٤ .

[٢٧] نضد القواعد الفقهية : ٦٢ .

[٢٨] التنقيح الرائع ١ : ٢٣١ .

[٢٩] النافع يوم الحشر : ٤٦ .

[٣٠] التنقيح الرائع ١ : ٥٩٦ .

[٣١] التنقيح الرائع ١ : ٥٩٦ .

[٣٢] الكافي ١ : ٣٢ .

[٣٣] التنقيح الرائع ١ : ٥٩٦ .

[٣٤] نضد القواعد الفقهية : ٢٧١ .

[٣٥] المصدر نفسه .

[٣٦] اللوامع : ٢٩٠ .

[٣٧] اللوامع : ٢٧٠ .

[٣٨] اللوامع : ٣٥٩ .

[٣٩] نضد القواعد الفقهية : ٢٧٠ .

[٤٠] المصدر نفسه : ٢٧١ .

[٤١] المصدر نفسه : ٢٧١ .

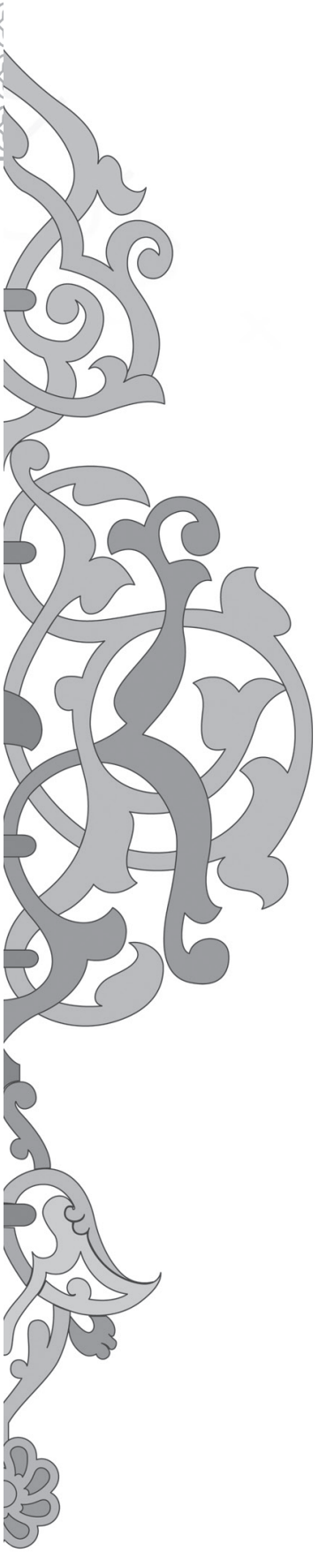

مُطَارَحَاتٌ فِكْرِيَّةٌ مَعْرِفِيَّةٌ

تَارِيخَانِيَّةُ المُعْطَيَاتِ القُرْآنِيَّةِ

قِرَاءَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ نَقْدِيَّةٌ

❖ العـلّامة السـيد صَدر الدين القبانجي [1]

(١) إمام جمعة النجف النجف الأشرف.

وبالتبع للنقطة الأولى والثانية في الرؤية الحداثية للوحي تأتي نظرية تاريخانية المعطيات القرآنية ، وهي تعني ان الخطاب الالهي ـ كما يسميه الفكر الديني ــ أو الخطاب البشري الصادر من شخص النبي ـ كما يسميه الحداثيون ـ هو خطاب متأثر بالمناخات الثقافية التي يعيشها النبي ، وهو محاولة لمعالجة ذات المشكلات التاريخية التي يعيشها أهل عصره وزمانه ، دون أن يكون لتلك المعارف والاحكام والخطابات إطلاقاً زمانياً يستوعب الاجيال القادمة والعصور التاريخية الآتية .

إن النبي بوصفه بشراً لا يستطيع أن يعبر حدود ظرفه الزماني والمكاني وبشكل مطلق ، ولا يستطيع أن يتجرد عن الثقافات والتقاليد والاعراف التي عاشها .

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم هو خطاب للانسان الموجود قبل أربعة عشر قرناً .

وليس بالضرورة أن يكون هذا الخطاب موجها للبشرية فيما يأتي من قرون .

أليس القرآن الكريم يتحدث عن الابل والبقر ، وعن التين والزيتون ، فلماذا لم يتحدث عن مخلوقات أكثر عظمة من الابل والبقر ، ولماذا لم يتحدث عن الاناناس مثلاً بدلا عن التين والزيتون ؟

كل ذلك لان القرآن يتحدث بلغة قومه ، وثقافة قومه ، ومشاهدات قومه ، الامر الذي يعني انه خطاب في إطار ثقافة محدودة وليس خطاباً مطلقاً .

يقول د. حسن حنفي:

(نصوص الوحي ليست كتاباً أنزل مرة واحدة مفروضاً من عقل الهي ليتقبله جميع البشر، بل مجموعة من الحلول لبعض المشكلات اليومية التي تزخر بها حياة الفرد والجماعة، وكثير من هذه الحلول قد تغيرت وتبدلت حسب التجربة على مقدار الانسان وقدرته على التحمل، وكثير من الحلول لم تكن كذلك في بادئ الأمر معطاة من الوحي بل كانت مقترحات من الفرد أو الجماعة ثم أيدها الوحي وفرضها، وهذه الخاصية توجد في الوحي في آخر مراحله وهو الوحي الإسلامي، فهو ليس عطاء من الوحي بقدر ما هو فرض من الواقع وتأييد الوحي له)[1].

يقول مالك شبل[2]:

القراءة التأريخية كانت ستربط النص القرآني بالبيئة التي ظهر فيها، أي شبه الجزيرة العربية وبالزمن الذي ظهر فيه، أي القرن السابع الميلادي وعندئذ كان سيتخذ طابعاً نسبياً لا اطلاقياً فيما يختص التشريعات والحدود ووضع المرأة والرقَ وسوى ذلك، وبالتالي كان يمكن تطوير التشريع في الاسلام دون أن يعتبر ذلك خروجاً على شرع الله[3].

مبررات التاريخانيّة:

لنعد معك ايها القارئ العزيز إلى مبررات التاريخانية التي اثارها الحداثيون حول معطيات القرآن الكريم عقيدة وشريعة.

فقد قالوا ان القرآن الكريم انما يتحدث بلغة زمانه، ومفاهيم زمانه وواقعيات زمانه ولا مبرر لاسباغ الاطلاق الزماني والمكاني على تلك المعطيات.

ما هي المبررات التي يذكرها الحداثيون الاسلاميون!! للتاريخانية؟

نستطيع أن نستخلص من كلام الحداثيين ثلاث مبررات للقول بالتاريخانية:

المبرر الأوّل: ان النبي باعتباره بشراً فأنه بلا شك يتأثر بالثقافات

المحيطة به وهو مهما اراد ان يرتفع عنها الا انه لا محالة سيبقى مشدوداً اليها متأثراً بها شارباً من مائها .

والقرآن الكريم هو لغة النبي وصياغة النبي حتى اذا كان الله تعالى هو الذي ألهمه معانيه ! ! وعلى أساس ذلك فان هذه الصياغات القرآنية ليست بعيدة عن البصمات الشخصية للنبي وثقافاته ومدركاته ! !

المبرر الثاني : ان النبي باعتباره بشراً فهو محدود وغير قادر على ان يعبر حدود الزمان والمكان ان القبول ببشرية النبي ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ ﴾ يعني القبول بمحدودية ما يقدمه للناس ، حيث لا يمكن للمحدود ان يعبر الحدود ، ويتحدث بالمطلق ! !

المبرر الثالث : ان الثقافات البشرية متحركة ومتغيرة وحيث كانت المعالجات التي يقدمها النص القرآني والنبوي هي معالجات لواقع قائم فلا بدّ ان تتناسب مع ذلك الواقع وحينما يتغير الواقع وتتغير الثقافات ، لا بدّ تغير المعالجات .

لنستمع الى طيب تيزني[٤] ماذا يقول وهو يتحدث عن اشكاليات النص القرآني :

(ان الوضعيات الاجتماعية الشخصية في المجتمع العربي بما انطوت عليه من سمات ومطالب اجتماعية اقتصادية وسياسية وثقافية الخ هي التي تدخلت في عملية خلخلة النص القرآني وتشظيه وتوزعه بنيوياً ووظيفياً في اتجاهات طبقية وفئوية وأقوامية اثنيه متعددة ، وقد اتى ذلك على نحو ظهر فيه هذا النص معاداً بناؤه وفق قراءات متعددة محتملة تعدد تلك الاتجاهات وحواملها المجسدة بالوضعيات المذكورة)[٥] .

ويقول نصر حامد ابو زيد وهوئ بصدد نقد الخطاب الديني :

(ان النصوص الدينية ليست في التحليل الاخير سوى نصوص لغوية بمعنى انها تنتمي إلى بنية ثقافية محدودة تم انتاجها طبقاً للقوانين تلك الثقافة التي تعد اللغة نظامها الدلالي المركزي)[٦] .

ويقول أيضاً :

(هناك أفق معرفي لكل نص يغدو ممكناً عنده القول بأن هذا النص قد استنفد طاقته المعرفية والإيديولوجية ، وفقد كفاءته ، وصار ينتمي إلى ثقافة الماضي ، والحقيقة أن لكل نص من النصوص دوال إشاريّة ودلالية شديدة الارتباط بعصر انتاجه)[٧] .

* * *

نقد النظرية التاريخانيّة :

طبعا لو كان المقصود هو تاريخانية الاجتهادات والتفاسير التي قدمها الفقهاء والمفسرون وعلماء الكلام للدين وأحكامه وعقائده لأمكن الحديث عن وقوع اولئك الفقهاء والمفسرين والعلماء تحت تأثير الثقافة التاريخية المرحلية التي يعيشونها باعتبارهم بشراً ، ويحملون بلا شك ثقافات محدودة لا يمكن أن نسبغ عليها صفة الاطلاق .

لكن مشكلة هؤلاء الحداثيين انهم فكرة التاريخانية الى الانبياء أنفسهم ، وحتى نبينا الأكرم ﷺ وهو خاتم الرسل والانبياء فانهم يتعاملون مع ما جاء به أيضاً على أساس التاريخانية والمرحلية ! ! بنفس التحليل الذي يذكرونه عن سائر الفقهاء والعلماء والمفسرين والعرفاء ، لأن النبي ﷺ من وجهة نظرهم هو أيضاً مفسّر وقاريء للوحي ومن الطبيعي أن يخضع ــ باعتباره بشراً ــ لطبيعة المناخات الفكرية التي يعيشها ! ! وحينئذ فسيكون ما يأتي عنه من قرآن أو سُنة متناسباً مع عقلية المرحلة التي عاشها وطبيعة مناخاتها الفكرية والاخلاقية فحينما يعيش النبي في مجتمع ذكوري فمن الطبيعي ان تأتي قيمهُ وتشريعاتهُ متناسبة مع هذه الخلفية الأخلاقية وباضافة شيء من التعديل والتصحيح عليها أو باقرارها بالكامل ، ومثل ذلك حينما يعيش النبي مجتمعاً مليئاً بثقافة الغزو والثأر فان من الطبيعي أن يأتي متوافقاً مع تلك القيم وربما باضافة شيء من

المساحيق الشكلية ، والتحويرات الاصلاحية عليها فيتحول الغزو إلى ثقافة الجهاد ، والثأر إلى قانون القصاص وهكذا .

هذا هو ما يقصده الحداثيون بتاريخانية المعرفة الدينية ، فهم يتحدثون عن تاريخية النص القرآني والنبوي وليس عن تفاسير المفسرين ، وآراء المتكلمين .

يقول نصر حامد :

(الاحكام والتشريعات جزء من بنية الواقع الاجتماعي في مرحلة تاريخية محددة ، ويجب أن تقاس أحكام النصوص الدينية وتشريعاتها وتحدد دلالاتها من ثم من واقع ما أضافته بالحذف أو الزيادة إلى الواقع الاجتماعي الذي توجهت إليه)[٨] .

ويقول مالك شبل[٩] :

(ولكن البحث التاريخي الحديث يثبت لنا ان القرآن مرتبط بظروف عصره وبيئته : أي بشبه الجزيرة العربية ـ وبخاصة منطقة الحجاز ـ في القرن السابع الميلادي . فالفاظه ومرجعياته الجغرافية والتاريخية تدل على ذلك . يضاف إلى ذلك ان حياة النبي وتبشيره بالدعوة ومعارضة أهل مكة له وما حصل من أحداث وحروب ، كل ذلك نجد أصداءه واضحة في القرآن . هذا لا ينفي بالطبع أنه كتاب موحى من قبل الله أو مستلهم منه ، ولكن الوحي يتخذ في كل مرة صيغة اللغة والقوم الذين وجه اليهم هذا الوحي)[١٠] .

وقد يستدل الحداثيون على هذه الرؤية بان النبي ﷺ باعتباره بشرا مثل سائر البشر كما هو يقول ﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فهو لا يستطيع اذن ان يعبر حدود الزمان فيتحدث بالمطلق ، وأنى للمحدود ان يصل إلى المطلق ، أم كيف للبشر وهو ابن الارض ان يصل الى فضاء اللاهوت ، وسماء عالم الملكوت ؟ !

ما هي نتيجة هذا التفكير ؟ والى أين سوف نصل حينما نسير وفق بوصلة التاريخانية في قراءة النص القرآني ؟

طبعاً النتيجة هي كما يقول

الحداثيون اننا يجب ان نُخضع العقائد التي جاء بها النبي للنقد والتمحيص العقلي الذي يزيل عنها كل الاضافات والصور المرحلية البشرية المحدودة ويحتفظ بجوهرها، فالتوحيد مثلاً هو الجوهر أما سائر ما أُضيف على ذلك من صور وأوصاف فهي من فعل الأصابع البشرية المرحلية التاريخية التي رسمت اللوحة بألونها ومقاساتها، فالحديث عن سميع، عليم، خالق، ومصوّر، ورزاق وكذلك ذي العرش، وبيده الملك، وغيرها من الصور التي رسمتها عقيلة النبي للذات الالهية هي صور لا ضرورة للقبول بها ؟ ! بل لا بدّ من نقدها وقرائتها بصورة قد تكون مغايرة تماما عما جاء به الوحي ! ومثل ذلك الحديث عن الملائكة، والجن، والشياطين ! !

والكلام نفس الكلام عن التشريعات الدينية، فان المهم منها هو أهدافها ومقاصدها ومساراتها الكبرى، كالعدل والمساواة، والحرية وغير ذلك، وحينئذ يجب أن نُخضع تلك التشريعات لتلك المقاصد الكبرى وما عداها فهو تاريخي مرحلي متحرك لا ضرورة للالتزام به، فلم يَعُد مثلاً في زماننا هذا مجال للحديث عن ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾[11] ولا الحديث عن ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[12] ولا الحديث عن وجوب الزكاة في الغلات الاربع أو الانعام الثلاثة[13]، وهكذا فكل شيء مرهون بوقته، وزماننا هذا قد عَبَر تلك الثقافات الى شواطئ ثقافات جديدة.

اسمع ما يقوله حسن حنفي:

(لا يوجد (دين في ذاته) بل يوجد تراث لجماعة معينة ظهر في لحظة تاريخية محددة ويمكن تطويرها طبقاً للحظة تاريخية قادمة)[14].

هذه هي نظرية التاريخانية التي تريد الاجهاز على مجمل ما جاء من عند الله تعالى.

وقد يحتال الحداثيون في عرض هذه النظرية ليهربوا من المواجهة والاصطدام مع الولاء الديني لدى الناس فيقولوا اننا لا نريد الخروج على

ما جاء به الوحي، وانما نريد الخروج على التفسيرات الدينية للوحي، ولكن سبق ان عرفنا حكايتهم ومقصدهم بشكل صريح نقد الوحي، وتقديم تفسير آخر له يختلف تماماً عما يقوله القرآن الكريم، وتؤمن به الرسالات السماوية.

ما هو جواب هذه الرؤية ؟

جواب هذه الرؤية انها تعتمد على أساس باطل وهو أن الوحي منتج بشري وليس معطى الهياً، فالنبي هو الذي يرسم أفكار وصياغات الوحي كما قالوا[١٥] وحينئذ لا بدّ أن يتشكل بنفس الألوان التي يستخدمها شخص النبي باعتباره بشراً!! وهو لا يستطيع أن يتجاوز حدود الزمان والمكان فيتحدث عن احكام وعقائد مطلقة!!

ولكن اذا عرفنا كما سبق ان الوحي هو معطى الهي وليس منتجاً بشرياً، وان النبي صلى الله عليه وآله يرفض ان يكون له أية تأثرات في رسم صورة ما يجيء من عند الله تعالى، بل هو ينقل ما نزل اليه ويؤمن به :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[١٦]

إذا عرفنا ذلك فانه لم يبق حينئذ أي مجال للتشكيك في قدرة النبي على نقل أحكام مطلقة ومعارف أزلية أبدية لان تلك المعارف والأحكام قد أوحيت اليه من عند الله المطلق وليست هي من منتجاته الشخصية التي لا يستطيع ان يعبر بها حدود الزمان والمكان ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[١٧].

ان الوحي لما كان هو خطاب الله تعالى وكلماته : ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾[١٨] فان الله قادر على تقديم معارف مطلقة أزلية وأبدية وعلى تقديم أحكام وقيم أزلية وأبدية، لانه هو خالق الانسان وعارف باسراره ومعاناته وجميع ما يحتاج اليه من أمور دنياه وآخرته، فلا مجال بعدئذ لشبهة أن النبي بشر محدود والمحدود لا يستطيع أن يتحدث بالمطلق!

لو كان القرآن هو كلام النبي لكان لهذه الشبهة مجال، وكذلك السنّة النبوية أيضاً، فلو كانت بعيدة عن التعليم الالهي لأمكن ان يأتي فيها نفس الاشكال، لكن حينما يكون النبي مستلهماً علمه من عند الله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[١٩] ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[٢٠] فانه لا مشكلة اذن في انكشاف الحقائق المطلقة للنبي، ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ مهيمناً على جميع العلوم والكتب الالهية.

ولعلنا نستطيع ان نقرأ معالجة هذه الشبهة من خلال الحوار الذي جرى بين الله تعالى وملائكته في قصة خلق آدم واستخلافه حين قال الله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالت الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فقال تعالى ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢١].

ولأجل ان يوضح لهم حقيقة الأمر ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[٢٢]

ولكن آدم حين شرح لهم تلك الاسماء والحقائق الكبرى اكتشفت الملائكة أن اختيار آدم للخلافة كان اختياراً مبرراً ومنطقياً

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٢٣]

المسألة اذن هي مسألة التعليم الإلهي، وهو ما اقتضته المشيئة الإلهية ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[٢٤].

وقد شاء الله تعالى ان يطلق انبياءه على مساحات واسعة من تلك العلوم المطلقة.

وهذه الحقيقة هي ما يؤكدها القرآن الكريم بالقول ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٢٥]

اذن فان ما جاء بواسطة النبي ﷺ هو علوم الهية فتحها الله له وأنزلها على قلبه، وأظهرها له، فأيّ

معنى حينئذ للتشكيك في إطلاقية هذه الأحكام والمعارف حينما تكون صادرة من المحيط بكل شيء، ومن هو بكل شيء عليم؟

* * *

وتبقى مسألة اخرى في كلام هؤلاء الحداثيين وهي ان الوحي حتى لو كان معطى الهياً الا انه لا بدّ أن يأتي بمستوى ما يفهمه البشر وبنفس طريقتهم في التفكير، ولذا فهو يتحدث عن يد الله، ووجه الله، وعرش الله، وحب الله، وغضبه وسخطه وكيده ومكره، كما يتحدث عن أبواب السماء، وطي السماء كطي السجل للكتب، وهي جميعاً مفاهيم وصور بشرية جاء الوحي متناغماً معها حيث لا يمكن للبشر ان يفهم تلك الحقائق إلا من خلال مفاهيمهم عن الكون والوجود والحياة، ومن خلال طبيعة علاقاتهم البشرية القائمة على الحب والبغض والرضى والسخط وما شاكل ذلك.

إذن فالمعارف النازلة بالخطاب الالهي هي معارف وفق المقاسات البشرية، وما يدرينا لعلها تخفي وراءها حقائق أخرى لا يمكن إدراكها ولا التعبير عنها، وهذا هو ما يصطلحون عليه برمزية النص القرآني.

والكلام نفس الكلام في الاحكام والتشريعات التي نزل بها الوحي فهي حتى لو كانت تشريعات إلهية، الا انها تشريعات تتناسب مع الواقع القائم يومئذ حيث لا يمكن وليس من الحكمة في عمل تغييري كبير يقوده الانبياء ان يأتي مقطوعاً عن ذلك الواقع بحيث لا يستطيع الناس ان يهضموه ويتقبلوه، وهذا هو ما نلاحظه في تحريم الاسلام للخمر فقد جاء عبر مراحل، لماذا؟ حتى لا يكون مقطوعاً ومرفوضاً وغير مطاق بالنسبة للناس يومئذ.

هذا هو ما يقوله الحداثيون فما هو الجواب؟

الجواب: ان تلك مسألة يجب ان نستنطق فيها النص القرآني نفسه ليخبرنا ما اذا كان التشريع الوارد فيه

يتمتع بالاطلاق أو هو خاص بأهل ذلك الزمان نازلا وفق ثقافاتهم ومقاساتهم في الأعراف والتقاليد ؟

لا شك أن أي خطاب يريد أن يحقق نجاحاً على أرض الواقع ويقوم بعملية اصلاح وتغيير لا بدّ ان ينزل بمستوى أفكار الناس وثقافاتهم ويتحدث بلغتهم وطبيعة فهمهم ، هذه حقيقة لا شك فيها .. هي حقيقة نقبلها بل يقبلها القرآن الكريم نفسه وربما يشير إليها في مثل قوله ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾[٢٦] وقوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾[٢٧] حينما نفهم اللسان هنا بدلالته الأوسع بمعنى الفكر والثقافة واللغة ، وقد كان رسول الله ﷺ يقول (نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)[٢٨] اذاً هذه حقيقة صحيحة لكن السؤال هو ان مجيء الخطاب أي خطاب كان بلغة الناس وثقافتهم هل يعني أنه يبقى بالضرورة خاضعاً لتلك الاطر الفكرية ومحددا بحدودها ؟ طبعاً لا ، فالاستاذ الجامعي حينما يكتب كتاباً فانه يكتبه بمستوى الطلاب وطبيعة ثقافتهم وأعرافهم لكنه يحاول أن يصعد بهم إلى مرحلة فكرية أعلى ويقدّم لهم مفاهيم ونظريات جديدة قد تختلف عما لديهم من أفكار ونظريات لكنها تستخدم نفس اللغة والامثلة والمناهج ، وهو يقدم لهم نظريات علمية مغلقة لا يحدّها الزمان والمكان رغم أنه يطرحها بلغتهم ومستواهم .

اننا يجب ان نميز بين أمرين :

الأمر الأوّل : هو (تكيّف الخطاب) بمعنى تناسب لغة الخطاب مع ثقافة المخاطب ومنهجه الفكري وطبيعة ثقافته ، بحيث يكون مفهوماً للمخاطب ومنسجماً مع مستواه الثقافي .

والأمر الثاني : هو (تبعية الخطاب) بمعنى أن يكون الخطاب محدوداً بحدود ثقافة المخاطب ، وعدم دلالته على أي معنى أوسع من ثقافته وحدوده الفكرية ، بما يعني أن الخطاب سوف لا يكون شاملاً ولا

معنياً بأجيال ثقافية أخرى.

لا شك ان الأمر الأوّل هو الصحيح وهو تكيّف الخطاب مع ثقافة المخاطب، وليس الأمر الثاني وهو انغلاق الخطاب على المخاطب المباشر، ولأجل ذلك نرى أن الكتب العلمية مهما استخدمت لغة الناس وثقافتهم الا انها تبقى هادفة للعبور بهم إلى مناخات ثقافية جديدة خارج حدود الزمان والمكان الذي يعيشه أولئك الناس.

نحن حينما نقرأ كتاب (الشفاء) لابن سينا أو (المدينة الفاضلة) للفاربي أو (أصل الانواع) لدارون أو (الوجود والعدم) لسارتر فان جميع تلك الكتابات استخدمت لغة الناس المعاصرين لها وجاءت بمستوى ثقافاتهم وفهومهم وتفكيرهم لكنها جميعاً كانت تريد أن تتحدث بالمطلق الذي يعبر الزمان والمكان، فهي تتحدث عن نظريات مطلقة غير محدودة بمعاصريها، ولئن كان هؤلاء العلماء لطبيعة حدودهم البشرية لا يستطيعون الوصول الى المطلق واكتشافه حيث تترك طبيعتهم البشرية بصماتها على افكارهم ونظرياتهم، فان الوحي الالهي النازل على قلب النبي لا يواجب مثل هذه المشكلة لانه خطاب نازل من المطلق فهو قادر على ان يتحدث بالمطلق.

وحينئذ فان علينا دراسة النص القرآني والسياقات التي جاء فيها وما يحيط به من قرائن لنعرف ما اذا كان مدلوله يتحدث عن مفاهيم مطلقة أو هو مجرد مماشاة ومحاكاة للثقافات القائمة يومئذ. وهذا هو بالضبط ما يصنعه المفسرون وهنا أيضاً يأتي دور المفسر ولياقاته العلمية طبعاً.

* * *

مثلاً حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٢٩]

فان المفسر يقف امام اتجاهين في فهم هذا النص:

الفهم الاول: هو الصورة المادية للسماء والطي واليمين، فهي بمثابة الصفحة الورقية المطوية بيد الانسان

اليمنى.

الفهم الثاني: هو الصورة المجردة للسماء والطي واليمين فلا السماء هي لوحة مادية ذات سمك وبناء، ولا اليمين عبارة عن يد مثل ايدينا، ولا الطي عبارة عن لف السماء كما نلف الورق.

في هذا الفهم الثاني تكون الآية القرآنية ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، قد جاءت بنحو الرمز والاشارةالى معنى غير مادي وهو السيطرة الالهية الشاملة على الكون بحيث لا يخرج عن قبضته شيء، وهي سيطرة وهيمنة لا تواجه أدنى مشقة وتكلف، ولا عناد ولا ممانعة بل الموجودات ساكنة وذليلة في قبضته كما هي أوراق السجل ساكنة وذليلة في قبضة حاملها ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[٣٠].

إن تقديم هذا الفهم الثاني على الفهم الاول يخضع لاجتهاد المفسر ومدى تعمقه وفحصه للنص وما يحيط به من دلالات مساعدة من فهم المقصود وهي مسألة متروكة لاجتهاد المجتهدين وتفسير المفسرين، ولا يمكن الحكم بنحو مطلق ان القرآن الكريم إنما جاء مؤكداً ذات الافكار والرؤى الموجودة يومئذ عن السماء وبحسب ثقافتهم زمان النص.

ومثل ذلك نقرأ قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فاننا أيضاً نقف امام اتجاهين في فهم هذا النص: الاتجاه الاول يمثله الفهم المادي وكما هي الصورة المألوفة في حياة الملوك والسلاطين حينما يتربعون على عرش الملك، والاتجاه الثاني يمثله الفهم التجريدي المعنوي الذي يشير الى معنى السيطرة على الوجود وامتلاك قدرة التصرف فيه.

وفي اختيار احد هذين الاتجاهين لا بدّ من مراجعة النص، والنصوص المشابهة له والقرائن المحيطة به فان القرآن يفسر بعضه بعضاً وعرض ذلك على مجمل الفلسفة الاسلامية ورؤيتها للوجود ولذات البارئ تعالى وكيفية فهمها له، وهنا يأتي طبعاً دور المفسر

واقتداره واستيعابه للنص القرآني واحاطته العلمية بالفلسفة الاسلامية وفهمه للغة ومناهج الخطاب وأساليبه.

معنى ذلك اننا لا نستطيع ان نحكم على النص القرآني مسبقاً بأنه خاضع للثقافات المعاصرة له، وانه لا يقدم نظرية مطلقة تمتد خارج حدود الزمان والمكان، وانما يخضع ذلك لمراجعة النص ودواله القريبة والبعيدة، واللغوية والعقلية لاختيار الفهم المناسب للنص.

* * *

ونفس هذا المنهج في فهم النص يجب ان نتبعه في معرفة احكام الشريعة فهي قد تكون خاصة بمن عاصر النص، وقد تكون عامة ومطلقة لهم ولغيرهم في مختلف الازمنة والامكنة، وهي مسألة يحددها النص نفسه ودلالاته وما يحيط به أو يسبقه او يتلوه من قرائن ودوال. مثال ذلك حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾[31].

فاننا امام هذا الحكم الشرعي وهو الوضوء بالماء يجب ان نستنطق النص القرآني بشكل كامل لنعرف ما هو مراده بالضبط؟ هل المراد هو الغسل بالماء حصراً، أو المراد هو عملية التطهير وهو يحصل سواء كان بالماء كما هو المتعارف في ذلك الزمان أو بطريقة أخرى كاستخدام المعقمات أو التمسح بالمناديل الصحية او ما شابه ذلك كما يقوله الحداثيون[32]؟!

لا يجوز هنا ان نعتمد مذاقاتنا وثقافاتنا المحلية، انما الواجب هو استنطاق النص نفسه واستكشاف المقصود منه بشكل دقيق عبر مراجعة فاحصة له وللنصوص الاخرى التي تتحدث عن نفس الحكم الشرعي.

إذن فلا يجوز ان نحكم على النص القرآني بـ(التاريخانية) كما يصنعه الحداثيون، وانما يجب ان نترك اختيار الموقف للنص نفسه ودلالاته.

إن الحداثة لم تقدم أي مبرر

علمي لفرض التاريخانية على الأحكام الشرعية التي نزل بها الوحي ونطق بها القرآن والسنّة، ومجرد أن يكون الخطاب مناغماً لثقافة المخاطَب لا يصحح لنا ولا يفرض علينا ان نسبغ عليه دائماً ظاهرة التاريخانية بحيث نجعله مختصاً بأهل زمانه.

ومثله أيضاً حينما نقرأ قوله تعالى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[٣٣] فهل نفهم ذلك باعتباره خاصاً بأهل زمان النص حيث كانت تحكمهم قيم الأخلاقية معينة حول المرأة؟ أم انه حكم عام لتنظيم علاقة الرجال بالنساء على مدى الأيام والأزمنة؟

هذا ما يجب ان نستنطق فيه النص نفسه، امّا الحداثيون فانهم يفترضون وبشكل مسبق ان جميع الأحكام القرآنية مختصة بأهل زمانها حيث كانوا يعيشون ثقافة معينة، أما اليوم وحيث نعيش ثقافة الحريات وحقوق الانسان فلا معنى أبداً لفرض الحجاب على المرأة وسلف حريتها!!

الحقيقة ان الحداثيين انما يتبعون ظنونهم وأهوائهم ومذاقاتهم الشخصية دون ان يرجعوا الى النص القرآني نفسه ولا الى التوجيه الالهي المؤكد الذي يأمر باتباع العلم والابتعاد عن الظنون والاهواء، حينما يقول ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٣٤] وحينما يقول: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣٥] أو حينما يقول ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾[٣٦] انك حينما تطلق على طريقة تعامل الحداثيين مع القرآن الكريم ونصوصه واحكامه ومعارفه تزداد عجباً من استهانتهم بالوحي الالهي والخطاب القرآني فهم يتصرفون به كما يحلو لهم، وليتهم افصحوا عن نواياهم واعلنوا عن عدم ايمانهم بالوحي والقرآن والنبوة.

فواعجباً على أي عماد اعتمدوا؟ أم الى أي سند استندوا وهم يحرفون كلام الله عن مواضعه ولا يبقون شيئاً سالماً من شريعته؟ أهذه هي الحداثة الاسلامية؟! أم هذا هو الاسلام الذي

جاء به رسول الله ﷺ وجاهد من أجله الانبياء والأولياء ؟ من أجل أن نستبيح الزنا والخمر باسم الحداثة ؟!! ولا حول ولا قوة الا بالله ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٣٧] .

المقياس هو دلالة النص القرآني :

إننا يجب ان نخضع لدلالة النص ومعطياته فاذا كان شخصياً أو مرحلياً كان علينا الالتزام بذلك واذا كان عاماً ومطلقاً للزمان والمكان كان علينا قبوله بعمومه واطلاقه الزماني والمكاني.

سيكون المقياس اذن هو النص نفسه وليس رغباتنا ومذاقاتنا البشرية فحينما نقرأ قوله تعالى وهو يتحدث عن وجوب الهجرة إلى المدينة المنورة قائلاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣٨] .

عرفنا ان هذا الحكم من اختصاصات مرحلة ما قبل فتح مكة اما بعد ذلك وحين دخلت مكة في الاسلام وامتدت دولة الاسلام لتشمل مكة والمدينة فلم يعد واجباً على أهالي مكة كلهم الهجرة إلى المدينة المنورة بدليل ان رسول الله ﷺ لم يأمرهم بذلك، ولم يبق هناك مبرر للهجرة والاسلام نفسه قد امتد الى مكة واصبحت الهجرة عنها غير ذات مبرر، وهذا ما شرحه القرآن الكريم بالقول ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣٩] فالهجرة العامة لم تعد واجبة إلى المدينة المنورة بل يكفي ان يذهب عدد قليل من المسلمين الى العاصمة الاسلامية حيث موطن العلم والرسالة (المدينة المنورة يومئذ) ليأخذوا معالم الدين ثم يرجعوا الى قومهم لتعليمهم

وشرحها لهم .

إذن فالحكم هنا كان حكماً مرحلياً تاريخانياً وبشهادة القرآن الكريم نفسه وممارسة النبي الأكرم ﷺ .

ومثل ذلك حينما نقرأ بعض الأحكام الشرعية التي نُسخت في القرآن الكريم .

فان النسخ يعني انتهاء أمد الحكم واعتباره مرحلياً خاصاً بفترة ما قبل النسخ ، وسيكون القرآن الكريم هو الشاهد على هذه المرحلة التاريخانية وليست المسألة مسألة اجتهاد شخصي أو فرضية نفترضها نحن .

مثال ذلك (اية النجوى) التي تتحدث عن وجوب تقديم الصدقة بهدف لقاء النبي وزيارته حينما قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ ﴾[٤٠] فهذا الحكم وبمقتضى دلالة الآية يجب أن يكون سارياً ممتداً ما دام الرسول ﷺ موجوداً بين المسلمين وفي جميع الحالات والاشخاص الذين يريدون مناجات الرسول ﷺ ولكن حين نزل القرآن نفسه ولسبب من الاسباب بنسخ هذا الحكم ورفع اليد عنه كان ذلك كافياً لاعتباره مرحلياً وتاريخانياً فقد قال تعالى ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[٤١] .

هذا هو مفهوم النسخ الذي يتحدث عنه القرآن الكريم بالقول ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ ﴾[٤٢] .

هذا المفهوم نفسه يطبقه الاسلام بشكل واسع على الشرائع الدينية التي سبقته فقد جاءت الرسالة الإسلامية ناسخة لتلك الشرائع بما يعني انها كانت مرحلية تاريخانية .

لكن السؤال هو : من الذي يملك حق النسخ ؟

من الذي يحدد ما اذا كانت هذه الاحكام مرحلية أم مطلقة ؟

هل يجوز لنا ان نطلق لانفسنا

العنان ننسخ ما نشاء من الأحكام بافتراض انها كانت مختصة باهل زمانها ؟

الجواب ان النص القرآني يجب أن يكون هو المعيار لتحديد ما اذا كان الحكم مطلقاً أم مرحلياً ؟

فحين يقول تعالى ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[٤٣] هل نستطيع اعتبار هذا الحكم خاصاً بأهل زمانها ؟

الجواب ان النص القرآني يجب ان يكون هو المعيار لتحديد ما اذا كان الحكم مطلقاً أم مرحلياً ؟

فحين يقول تعالى ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[٤٤] هل نستطيع اعتبار هذا الحكم خاصاً بأهل زمانه ؟

وما هو الدليل على هذا الاختصاص في الوقت الذي نجد النص القرآني مطلقاً لكل زمان ومكان.

ومثل ذلك حينما يقول ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[٤٥] فهل نستطيع أن نجرأ ونقول ان القضية هنا قضية تختص بالبيئة الثقافية والاجتماعية التي نزل فيها القرآن ولا تعميم لها لاكثر من ذلك ؟

ألسنا مطالبين بالبرهان والحجة ؟

هل يجوز لنا أن نعبر النص القرآني ودلالاته ؟ ومن أين ، ومن اعطانا هذه الصلاحية ؟

وكيف جاز لنا أن نضع الخبرة البشرية المتحركة والمتعددة والمتضادة في مصاف الوحي الإلهي ومقابله بل وحاكمة عليه ؟ هل هذا هو معنى الايمان والسمع والطاعة الذي يتحدث عنه القرآن ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤٦].

أم هل صحيح أن النص القرآني قد استنفد طاقته وصار ينتمي إلى ثقافة الماضي كما يقول نصر حامد أبو

زيد ؟ ! !

(هناك أفق معرفي لكل نص يغدوئ ممكناً عنده القول بان هذا النص قد استنفد طاقته المعرفية الايديولوجية وفقد كفاءته وصار ينتمي إلى ثقافة الماضي)[٤٧] .

التاريخانية نظرية غير مبرهنة :

إن اول ما تواجهه نظرية التاريخانية انها نظرية غير مبرهنة لان بشرية الرسول الاكرم ﷺ لا تعني بالضرورة انه يتأثر بثقافة عصره ويبقى محاطاً بأسوارها وخاضعاً لها وبخاصة حينما نعتقد انه رسول من عند الله تعالى ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[٤٨] فهو مرتبط اذن بالعلم المطلق، وآخذ من معينه، وحينئذ سوف لا يبقى مجال للتشكيك في امكانية ان يأتي الرسول باحكام تعبر الزمان والمكان .

ان معنى النبوة والرسالة هو تجاوز القدرات الذاتية في المعرفة والعثور على مصدر آخر لها وهو الوحي، وهو مصدر يرتبط بمن ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[٤٩] و ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾[٥٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ﴾[٥١] .

إذن فالتاريخانية قد تكون مقبولة حينما نتعامل مع النبي بوصفه البشري فقط ناسين نبوته ورسالته او منكرين لها، امّا حينما نصدق نبوته ورسالته ارتباطه باللـه تعالى فان شبهة التاريخانية سوف تنحل ذاتياً .

* * *

إن تغيّر ثقافات الامم والشعوب عبر الازمان والعصور لا يعني تغير الحقيقة[٥٢]، والدين انما يتحدث عن الحقيقة الثابتة التي لا تتغير .

لنفترض ان ثقافات الناس تغيرت فما علاقة ذلك بالمعتقدات والثوابت الدينية كالتوحيد والمعاد وسائر ما يحيط أو ينبثق عن ذلك .

وما علاقة ذلك بالقيم الاخلاقية التي هي ثوابت انسانية لا تتغير على مر العصور[٥٣] .

* * *

ولنفترض ان نمط الحياة البشرية قد تغير، وبعض الثقافات قد تغيرت، لنفترض ذلك... لكن من الذي يعطينا حق النسخ لاحكام الشريعة الالهية وهي بحسب دلالة النص مطلقة وغير مقيدة بزمان أو مكان.

نحن نؤمن بالنسخ، وقد تحقق ذلك بين الشرائع الالهية نفسها، كما تحقق في داخل الشريعة الاسلامية نفسها.. هذا صحيح ولكن هل يبيح لنا ذلك ان نقوم بعملية النسخ؟ ومن هو؟ وأي شخص؟ وفي أي زمان؟ وفي أي مكان؟ وعلى أي أساس يقوم بعملية النسخ؟

قد تبدو رغبة جامحة لهؤلاء الحداثيين ان يتحرروا من قيود الشريعة الاسلامية كما سنقرأ ذلك في القسم الثالث من هذا الكتاب ـ ولكن هل يملكون دليلاً يسوغ لهم هذا التحلل؟

انهم يجب ان يقدموا دليلاً من القرآن نفسه، أو سنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لانهم حسب الفرض يؤمنون بالقرآن والسنة فهل لديهم شاهد من القرآن على نظرية التاريخانية؟!

* * *

البرهان على إطلاق الشريعة الإسلامية وخاتميتها:

ولأن النص القرآني واضح في عمومه واطلاقه الزماني والمكاني في مجمل خطاباته واحكامه فقد اضحت قضية الخاتمية من البديهيات التي لا يناقش فيها أحد في العالم الإسلامي حيث (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة)[٥٤].

وبالغرم من ان هذا حديث شريف معروف لكن المسألة لم تكن تعتمد عليه بمقدار ما تعتمد على وضوح الخطاب القرآني في اطلاقه الزماني والمكاني.

فحينما يتحدث القرآن قائلاً ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٥٥] أو حينما

يقول ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾[٥٦]، أو حين يقول ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[٥٧].

فإنه لا أحد كان يشك في اطلاق هذه النصوص وهذه الاحكام لكل زمان ومكان.

إن خاتمية الرسالة المحمدية وانقطاع الوحي بعد رسول الله ﷺ، واعتبار القرآن الكريم هو آخر نص الهي ينزل على البشر... اضحت من البداهات الاسلامية التي لا يناقش فيها احد.

ولم يكن القرآن الكريم بعيداً عن تأكيد هذه الفكرة حين قال ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٥٨].

كما كانت تصريحات النبي الاكرم ﷺ مؤكدة ومكررة في هذا الشأن حين قال مراراً (لا نبي بعدي) وبخاصة في الحديث النبوي المعروف لدى مخاطبته ﷺ للامام علي بن أبي طالب قائلاً: (أمّا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي)[٥٩].

هذا هو النص المعروف والمتواتر رغم ان ابن عربي يروي نصاً آخر عن رسول الله ﷺ يقول فيه (لا نبي ولا رسول بعدي)[٦٠].

كما ان الامام علي عليه السلام في نهج البلاغي يتحدث عن ختم الرسالة[٦١] أيضاً حين قال وهو يصف النبي الاكرم ﷺ: (أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نعمته)[٦٢].

وقال الامام الصادق عليه السلام كما رواه الكافي: (ان الله ختم بنبيكم النبيين فلا نبي بعده، وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبداً)[٦٣].

مصادر المعرفة بعد الوحي الإلهي

ومع هذه البداهة والوضوح في فكرة الخاتمية فقد وجدنا الحداثيين يحاولون الالتفاف بطريقة جديدة على هذه الفكرة، فقالوا اننا نعتقد بختم النبوة وليس ختم الرسالة، فالنبوة قد انتهت وختم الرسالة، فالنبوة قد انتهت

وختمت بنبينا الاكرم ﷺ، ولكن الرسالة الالهية مستمرة بين البشر عبر العقل فهو رسول الهي مستمر بعد نهاية عهد النبوات.

وقد سيشهدون على هذه النظرية بان الآية القرآنية قالت (وخاتم النبيين) ولم تقل (وخاتم المرسلين) كما ان الحديث النبوي المعروف يقول (لا نبي بعدي) ولم يقل (لا رسول بعدي) الأمر الذي يسمح بالقول ان الرسالة الالهية مستمرة للانسان عبر العقل وان انقطعت النبوة وانتهت ! !

* * *

الحقيقة ان الفكر الاسلامي يؤمن صريحاً باعتبار العقل مصدراً للمعرفة، كما يفتح الباب على مصراعية للخبرة البشرية ومعطياتها وقد سبق ان عرضنا الرؤية الاسلامية تجاه الخبره البشرية وتجاه العقل في القسم الأوّل من هذا الكتاب.

وفي هذا السياق سيكون صحيحاً ما يقوله عرفاء الاسلام مثل صدر المتألهين أو بعض الباحثين الاسلاميين الكبار مثل محمد اقبال اللاهوري.

لقد رأى صدر المتألهين ان باب النبوة اذا أغلق فان باب الالهام سيبقى مفتوحاً لتمضي البشرية في طريق تكاملها، استمع اليه وهو يقول:

(واعلم ان الوحي اذا انقطع وباب الرسالة اذا انسد استغنى الناس عن الرسل واظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة واكمال الدين كما قال الله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ واما باب الالهام فلا ينسد ومدد نور الهداية لا ينقطع لاحتياج الناس لاستغراقهم في هذه الوساوس الى التنبيه والتذكير والله تعالى غلق باب الوحي وفتح باب الالهام رحمة منه على العباد)[٦٤].

أما محمد اقبال اللاهوري فانه يطرح الفكرة نفسها ولكن بعيداً عن صياغات العرفاء ومصطلحاتهم بل قريباً من صياغات الباحثين المعاصرين واصطلاحاتهم.

استمع اليه وهو يقول:

(مولد الاسلام هو مولد العقل

الاستدلالي ، في طفولة البشرية تتطور القوة الروحانية الى ما اسميه بـ (الوعي النبوي) وهو وسيلة للاقتصاد في التفكير الفردي والاختيار الشخصي وذلك بتزويد الناس باحكام واختيارات وأساليب للعمل اعدت من قبل) .

(ولكن الوجود اخذ بمولد العقل وظهور ملكة النقد والتمحيص تكبت الحياة ــ رعاية لمصلحتها ــ التكوين والنمو لاحوال المعرفة التي تعتمد على العقل)[٦٥] .

(ان النبوة في الاسلام لتبلغ كمالها الاخير في ادراك الحاجة الى الغاء النبوة نفسها[٦٦] ، وهو أمر ينطوي على ادراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً الى الابد على مقود يقاد منه وان الانسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي ان يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو)[٦٧] .

إن هذه الكلمات حينما ننظر اليها بعمق ونضعها في سياقها الذي وضعها اصحابها نعرف ان المقصود منها هو ضرورة حركة العقل الاستدلالي النقدي لمواصلة خط التكامل البشري .

وهذا معنى صحيح حينما لا يكون العقل في مقابل النبوة ولا مضاداً لها ولا ساعياً لتهميش معطياتها بل يكون العقل فاعلاً وقائداً بنفس مساراتها .

ولأجل هذا نجد تاكيد هؤلاء العرفاء والمفكرين على ضرورة الالتزام بالشريعة الاسلامية فاتحين باب الاجتهاد في استنباط احكامها بل نجدهم انما دعوا الى حركة التجديد في الفكر الديني لمواجهة حالة التحلل والابتعاد عن الدين كما يقول محمد اقبال :

(اذا لم نستطع ان نضيف جديداً الى التفكير الاسلامي العام فقد نوفق عن طريق النقد المحافظ السديد في كبح جماح حركة التحلل من الدين التي تنتشر بسرعة في العالم الإسلامي)[٦٨] .

هكذا تحدث مشايخ العرفاء من امثال الجنيد وابن عربي فالمهم عندهم هو التزام الشريعة الاسلامية رغم دعوتهم وايمانهم بفتح باب الالهام والاجتهاد اعتماداً على العقل .

يقول ابن عربي[٦٩] وهو يتحدث عن قيام اصول الشريعة على الكتاب والسنة:

(قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وهما الاصلان الفاعلان والاجماع والقياس انما يثبتان وتصح دلالتهما بالكتاب والسنة فهما أصلان في الحكم منفعلان)[٧٠].

وفي السياق نفسه يقول ابن عربي:

(اعلم ان أحكام الشرع المتفق عليها ثلاثة: الكتاب والسنة المتواترة والاجماع، واختلف العلماء في القياس فمن قائل بأنه دليل وانه من اصول الاحكام ومن قائل بمنعه وبه أقول)[٧١].

* * *

معطيات العقل لا تلغي رسالة الانبياء:

العقل الاستدلالي النقدي هو موضع احترام وتقدير[٧٢]، بل لا بدّ من اعتماده لديمومة الحياة وتكاملها، الا ان نقطة الافتراق بين القراءة الاسلامية والقراءة الحداثية هي ان الحداثيين يريدون الغاء الشريعة الاسلامية ووضع الخبرة البشرية في موضعها[٧٣]، في الوقت الذي تؤكد القراءة الاسلامية للوحي النبوي ان معطيات هذا الوحي ستبقى سارية المفعول على مدى الزمان والمكان، فلا نبوة بعد نبوة محمد ﷺ ولا رسالة بعد رسالته ﷺ.

وتستدل القراءة الاسلامية على هذا الرؤية بما سبق استعراضه آنفاً، فاذا كان النبي قد قال (لا نبي بعدي) وقال القرآن (وخاتم النبيين) فان ذلك يعني أيضاً وضمناً لا رسول بعد رسول الله، ولا رسالة بعد رسالة الاسلام، لماذا؟

لان النبوة هي الخطوة الاول في طريق الرسالة فاذا انتفت النبوة انتفت معها الرسالة، حيث لا يمكن افتراض وجود رسالة عن الله تعالى دون نبوة.

فلم يعد حاجة ليقول القرآن الكريم (وخاتم المرسلين) بعد ان قال

(وخاتم النبيين) .

وأما رسالة العقل والخبرة البشرية فهي منحة الهية ايضاً ، ونعمة كبرى يتمكن الانسان بها من مواصلة خط التكامل في حياته ، لكنها على كل الاحوال تمثل اجتهاداً بشرياً وليس رسالة الهية ، والاجتهاد البشري قابل للجدل والنقض والابرام فهو يمثل رؤى متحركة ومتغيرة بخلاف الرسالة الالهية التي تعني ثوابت ومطلقات .

* * *

وهنا نصل الى التمييز بين ما هي اليقينيات العقلية والوجدانيات الفطرية المتفق عليها من قبل جميع العقلاء حيث يمكن القول انها الهام الهي ولذا يقول فقهاء الاسلام بحجيتها واعتبارها قراراً شرعياً ـ كما سبق شرح ذلك في القسم الاول من هذا الكتاب ـ وبين ما هي الاجتهادات العقلية المختلفة ونتائج البحث والتجربة وهي تعبر عن جهد شخصي قد يصيب وقد يخطيء فهي لا تعبر بالضرورة عن رأي العقل الخالص ومن هنا فلا يمكن تقديمها على معطيات الوحي النبوي لانها لا تعبر عن رسالة الهية ولا حكماً الهياً .

* * *

على اساس ذلك فان معطيات الخبرة البشرية ، والعقل الاستدلالي هي معطيات محترمة طالما كانت في اطار الوحي وفي مجال خدمة الانسان وتسخير الطبيعة له لا ما كان خارجاً عن ذلك ، في الوقت الذي ترى القراءة الحداثية ان الوحي يجب ان يخضع للتحليل والتأويل وبحسب ما تعطيه علوم الانسان والمجتمع الحديثة .

يقول د . محمد أركون :

(لكننا نعتقد ان أي نقد حقيقي للعقل الديني ينبغي ان يتمثل في استخدام كل مصادر المعقولية والتفكير التي تقدمها لنا علوم الانسان والمجتمع من اجل زحزحة اشكالية الوحي من النظام الفكري والموقع الابستمولوجي الخاص بالروح الدوغمائية الى فضاءات التحليل والتأويل التي يفتتحها الان العقل الاستطلاعي الجديد المنبثق حديثاً)[٧٤] .

الهوامش :

[١] حسن الحنفي / التراث والتجديد / ١٣٦ .

[٢] مالك شبل ولد ١٩٥٣ كاتب ومفكر جزائري له مؤلفات منها : الجنس والحريم روح السراري ، قاموس قاموس الرموز الإسلامية (المحقق) .

[٣] الاسلام والعقل / مالك شبل / نقله عنه هاشم صالح في كتاب (معضلة الاصولية الاسلامية) ص ٦٢ .

[٤] فيلسوف وباحث سوري ولد في مدينة حمص السورية عام ١٩٣٤ . وغادر إلى تركيا بعد أن أنهى دراسته الأولية ومنها إلى بريطانيا ثم إلى ألمانيا لينهي دراسته للفلسفة فيها ويحصل أولاً على الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٦٧ ثم الدكتوراه في العلوم الفلسفية عام ١٩٧٣ (المحقق) .

[٥] الطيب تيزيني / النص القرآني امام اشكالية البنية والقراءة ، ص ٢٥٦ وما يليها نقله عنه كتاب روح الحداثة لطه عبد الرحمن / ص ١٨٠ .

[٦] نصر حامد / نقد الخطاب الديني / ص ٢٠٣ / نقله عنه روح الحداثة / ص ١٨٠ .

[٧] نصر حامد أبو زيد / الخطاب والتأويل / المركز الثقافي العربي / الطبعة الثالثة / ص ٢٦٤ .

[٨] كتاب النص والسلطة والحقيقة / نصر حامد / ١٣٥ .

[٩] انظر معضلة الأصولية الإسلامية ص ٦٢ / هاشم صالح / وهو يقدم قراءته عن كتاب مالك شبل (الإسلام والعقل : معركة الأفكار في العالم الإسلامي) .

[١٠] يقول (أيمن عبد الرسول) في كتاب نقد الاسلام الوضعي ص ١٨ نقله عنه سعيد عبد اللطيف فوده في كتابه مقالات نقدية في الحداثة والعلمانية / ٢١٨ (ولا بدّ أن الله في هذا التصور قائم على العرش في السماء ولا بدّ انه ذكر بالتماهي مع مجتمع ذكوري قبلي ، . . .) . القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني / محمد أركون / الهامش ص ١٤ هاشم صالح .

[١١] سورة النساء ، الآية ٣٤ .

[١٢] سورة الإسراء الآية ٣٢ .

[١٣] التراث والتجديد ، مصدر سابق ، ص ٢٤ .

[١٤] التراث والتجديد ، مصدر سابق ، ص ٢٤ .

[١٥] انظر عرضنا المتقدم للنظرية الاولى في القراءة الحداثية للقرآن الكريم (الوحي منتج بشري) .

[١٦] سورة البقرة ، الآية ٢٨٥ .

[١٧] سورة الانعام ، الآية ١٩ .

[١٨] سورة الكهف ، الآية ٢٧ .

[١٩] سورة يوسف ، الآية ٦ .

[٢٠] سورة الكهف ، الآية ٦٥ .

[٢١] سورة البقرة ، الآية ٣٠ .

[٢٢] سورة البقرة ، الآية ٣١ ـ ٣٢ .

[٢٣] سورة البقرة ، الآية ٣٣ .

[٢٤] سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .

[٢٥] سورة الجن ، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ .

[٢٦] سورة مريم ، الآية ٩٧ .

[٢٧] سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

[٢٨] وجاء (نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلّمهم على قدر عقولهم) إحياء علوم الدين / الإمام الغزالي ، ج ١ ، ص ٩٦ .

[٢٩] سورة الزمر ، الآية ٦٧ .

[٣٠] سورة الأنبياء ، الآية ١٠٤ .
[٣١] سورة المائدة ، الآية : ٦ .
[٣٢] راجع في التعرف على نماذج من الفهم الحداثي للأحكام الشرعية وتفسير الآيات القرآنية (الكتاب والقرآن) لـ (محمد شحرور) . .
[٣٣] سورة النور ، الآية ٣١ .
[٣٤] سورة الإسراء ، الآية ٣٦ .
[٣٥] سورة الأحقاف ، الآية ٤ .
[٣٦] سورة القلم ، الآيتان ٣٧ ـ ٣٨ .
[٣٧] سورة الطور ، الآية ٣٢ .
[٣٨] سورة الأنفال ، الآية ٧٢ .
[٣٩] سورة التوبة ، الآية ١٢٢ .
[٤٠] سورة المجادلة ، الآية ١٢ .
[٤١] سورة المجادلة ، الآية ١٣ .
[٤٢] سورة البقرة ، الآية ١٠٦ .
[٤٣] سورة البقرة ، الآية ٢٥٧ .
[٤٤] سورة المائدة ، الآية ٩٠ .
[٤٥] سورة المائدة ، الآية ٩٠ .
[٤٦] سورة البقرة ، الآية ٢٨٥ .
[٤٧] نصر حامد ابو زيد / الخطاب والتأويل / ص ٢٦٤ .
[٤٨] سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .
[٤٩] سورة آل عمران ، الآية ٥ .
[٥٠] سورة غافر ، الآية ١٩ .
[٥١] سورة النساء ، الآية ١٢٦ .
[٥٢] سوف نعود لهذا الموضوع قريباً لدى مناقشة نظرية (تعدد الحقيقة) .
[٥٣] سبق دراسة هذا الموضوع في كتابنا (الاسس الفلسفية للحداثة) فراجع .
[٥٤] الكافي للشيخ الكليني ، ج ١ ، ص ٥٨ .
[٥٥] سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .
[٥٦] سورة النور ، الآية ٣٠ .
[٥٧] سورة الاسراء ، الآية ٣٢ .
[٥٨] سورة الأحزاب ، الآية ٤٠ .
[٥٩] مجموعة الفتاوى ، ابن تيمية ، ج ٧ ، ص .
[٦٠] نقله عنه نصر حامد أبو زيد في (هكذا تكلم ابن عربي) ص ٦٨ الطبعة الثالثة ، المركز الثقافي العربي .
[٦١] جمع كتاب (معالم النبوة) للشيخ السبحاني ١٣٥ حديثاً في هذا المعنى فراجع .
[٦٢] نهج البلاغة ، ص ٢٤٧ ، الخطبة ١٣٧ .
[٦٣] الكافي ، الكليني ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .
[٦٤] مفاتيح الغيب ، صدر الدين الشيرازي ، ص ٤١ ـ ٤٢ .
[٦٥] هكذا هو النص كما جاء في الترجمة وقد يبدو فيه سقط أو خلل رغم أن الفكرة المقصودة واضحة .
[٦٦] هكذا جاء النص في الترجمة ولا شك ان اللاهوري وهو الرجل الذي أبدى فناءً كبيراً في الإسلام ، ووله في شخصية النبي ﷺ ، وإصراراً على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية كما قرأنا له ذلك في ديوانه الشعري لا يقصد إلغاء النبوة بل يقصد العبور من الجمود إلى الاجتهاد في فهم النص واعتماد معطيات الخبرة البشرية استجابة لحاجات العصر في إطار الشريعة الإلهية .
[٦٧] تجديد التفكير الديني في الاسلام ، محمد اقبال ، ٢١٥ ـ ٢١٦ .
[٦٨] تجديد التفكير الديني في الاسلام ، محمد اقبال ، ٢٥٣ .
[٦٩] محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي ، أحد أشهر المتصوفين

لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفية « بالشيخ الأكبر » ولذا ينسب إليه الطريقة الأكبرية الصوفية . ولد في مرسية في الأندلس في شهر رمضان الكريم عام ٥٥٨ هـ الموافق ١١٦٤ قبل عامين من وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني وتوفي في دمشق عام ٦٣٨ هـ الموافق ١٢٤٠ م . ودفن في سفح جبل قاسيون (المحقق) .

[٧٠] هكذا تكلم ابن عربي ، نصر حامد ، ٢٦٢ .

[٧١] المصدر السابق ، ٢٦٦ .

[٧٢] سبق استعراض هذا الموضوع بشكل تفصيلي في القسم الاول من هذا الكتاب .

[٧٣] نرجو ان نعود لهذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلا في القسم الرابع من هذا الكتاب عند مناقشة الشريعة بين الاسلام والحداثة .

[٧٤] انظر روح الحداثة ، مصدر سابق ، ١٨١ ، نقلاً عن الطيب تيزيني (النص القرآني) ص ٥٨ .

مَفْهُومُ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي النِّظَامِ الرَّأسْمَالِيّ

مُنَاقَشَاتٌ نَقْدِيَّةٌ

❖ العـلّامة السـيد فاضـل الجابري [1]

(١) أســتاذ الدراسات العليا / حوزة النجف الاشرف.

يتركز النظام الرأسمالي ـ كما هو معروف ـ على الحريّات الأربع السياسية والاقتصـاية والفكريـة والشخصـية ، الناتجـة مـن خـلال تبنّيـه للمـذهب الفـردي . ولـو أردنـا أن نسـتعرض هـذه الحريّات لوجدناها برّاقة فـي ظاهرهـا ، سوداء مظلمة في حقيقتها . لنبـدأ الآن باستعراض هذه الحرّيّات ، لكي نتعـرّف على الركائز والدعام التي قام عليها هذا النظام .

أوّلاً : الحرّيّة السياسية

وتعني أن لكلّ مواطن حـقّ تقريـر الحياة العامّة للأمّة ، من خلال اختياره للمثّليه ، سواء على صعيد رئيس الدولـة أو البرلمـان . لأنّ المـواطن لـمّا كـان جـزءاً مـن هـذا الكيـان ، وهـو غيـر منفصل عنه بأيّ شكل من الأشـكال ، فـلا بـدّ ـ حينئـذ ـ أن يكـون حـرّاً فـي اختيـاره السياسـي مـن أجـل ضـمان مصـالحه الشخصـية التـي تتـأثّر قطعـاً بالقرارات والقوانين الصادرة عن السلطة العليا في الدولة . هذا من ناحيـة ، ومـن ناحية أُخرى ، فإنّ لكلّ مواطن حقّاً في ترشيح نفسه ملنصب رئيس الجمهورية أو الوزراء أو عضوية البرلمان ، ولا يجوز سلب ذلك الحقّ منه البتة[1] .

ثانياً : الحريّة الاقتصادية

وهي الحرّيّة القاضية بأنّ كلّ فـرد حرّ بشكل كامل ، في تملّك أيّ شيء ، أو اسـتهلاك أيّ شـيء ، أو إنتـاج أيّ شيء ـ مـا دام لا يضـرّ المجتمـع مثـل الاتّجـار بالمخـدّرات ـ فهـذه الحرّيـا « ترتكز على الإيمان بالاقتصـاد الحـرّ ، وتقرّر فتح جميع الأبواب ، وتهيئة كافّـة

الميادين، أمام المواطن في المجال الاقتصادي. فيباح التملّك للاستهلاك والانتاج معاً، وتباح هذه الملكية الإنتاجية التي يتكوّن منها رأس المال، من غير حدٍّ ولا تغيير، وللجميع على حدّ سواء، فلكلّ فرد مطلق الحرّيّة في انتاج أيّ أسلوب، وسلوك أيّ طريق لكسب الثروة وتضخيمها ومضاعفتها، في ضوء مصالحه ومنافعه الشخصية »[٢].

ثالثاً: الحرّيّة الفكرية

وتعني أن الإنسان حرٌّ في تفكيره وعقيدته ومتبنّياته الإيديولوجية وله كامل الحقّ في نشرها، وإذاعتها، والدعوة إليها، والدفاع عنها، من غير أن يستطيع أحد سلب هذا الحقّ منه[٣].

رابعاً: الحرّيّة الشخصية

وهي « تعبير عن تحرّر الإنسان في سلوكه الخاصّ من مختلف ألوان الضغط والتحديد. فهو يملك إرادته وتطوّرها وفقاً لرغباته الخاصّة مهما نجم عن استعماله لسيطرته هذه على سلوكه الخاصّ من مضاعفات ونتائج، ما لم تصطدم بسيطرة الآخرين على سلوكهم »[٤].

فالانسان وفق هذه الحريّة يتصرّف بما شاء، من سلوك أو عمل بما تشتهي نفسه، بشرط عدم مزاحمة الآخرين بسلوكه.

هذه هي الركائز الأساسية التي قام عليها النظام الرأسمالي، حيث جعل الفرد هو المحور الأساسي الذي تدور عليه كلّ أركان النظام وتشريعاته، وواجب الدولة أن تحافظ على هذه الركائز وتشرِّع القوانين التي تتلاءم مع روحها وجوهرها.

ولو أردنا أن نستعرض ما لهذه الحرّيّات من واقع عملي في المجتمع الغربي، لرأينا العكس تماماً. فالحرّيّتان السياسية والاقتصادية مسلوبتان تماماً من عدد كبير من أفراد المجتمع لأسباب عديدة، كالثروة والجنس والدين. أمّا الذي نراه في هذا

النظام من التشرّق بالحرّيّة ، فلا يعدو كونه كلاماً منمّقاً ، وواقعاً مزيّفاً ، يخدّرون به الفقراء والمحرومين والشعوب الأخرى وفق سياسة خبيثة . وبالتالي فلا وجود لهذه الحرّيّات في الواقع الغربي ـ كما سنوضّح ـ الأمر الذي يؤدّي إلى انعدام العدالة الاجتماعية .

فالعدالة التي تمثّل إيصال أفراد المجتمع المحرومين والفقراء ، إلى مستوىً يتلاءم والواقع الحياتي والعيش الكريم لهم ، وإتاحة الفرصة الكاملة لكلّ شخص في أن يأخذ دوره في الواقع السياسي والاقتصادي و . . . الخ ، لا تنطبق أبداً على النظام الرأسمالي الذي لا يفهم معنى العدالة بهذا الشكل ، بل يرى أنّ الفقراء والمحرومين لا مكان لهم في المجتمع ، لأنّ المجتمع في نظره للأقوياء دون غيرهم . فهذا النظام لا ينظر إلى الفقراء نظرة رحيمة ـ كما في الإسلام ـ بل يتحامل على الفقراء باعتبارهم متسوّلين منحرفين يتقاعسون عن العمل ، ولا يحملون روح الجدّ والمثابرة[٥] لذلك لا بدّ لنا أن نرى كيف ينظر هذا النظام إلى مسألة العدالة الاجتماعية ؟

ب ـ مفهوم العدالة الاجتماعية في النظام الرأسمالي

لا نريد أن يبدأ هذا الموضوع بالاستعراض التمهيدي للفكرة ، بل نفتح البحث بما نقله أُستاذنا السيّد الأعرجي عن (جون والفين) في كتابه (الإصرار على انعدام العدالة الاجتماعية) ، حيث يقول :

وتلوم النظرية الرأسمالية الفقراء في المجتمع الرأسمالي على فقرهم وتعاستهم ، وتلزمهم مسؤولية الهبوط إلى قعر السلّم الاجتماعي ، وتعزو سبب الفقر إلى انعدم المسؤولية الاجتماعية للطبقة الفقيرة . وتزعم بأنّ انعدام المساواة الاجتماعية بين الأفراد لها تبرير عقلائي ، وهو أنّ المجدّ يفوز بقصب السبق من الناحية الاقتصادية ، والخاسر يعاقَب بالحرمان من الكسب

المالي ويجرّد من مركزه الاجتماعي وقيمته الأخلاقية ؛ لأنّه ليس أهلاً للتمتّع بالثروات الاجتماعية[٦] .

هكذا نرى كيف ينظر هذا النظام إلى مسألة العدالة الاجتماعية ، فهو لا يريد أبداً أن يرفع الفقراء إلى المستوى الكريم من العيش ، بل يعاقبهم لفقرهم ، ويعتبرهم مجرمين في حقّ المجتمع ، لا يتحقّون شيئاً من الرعاية الاجتاعية .

وهذا أنّ دلّ على شيء فانّما يدلّ على النظرية الوحشية واللاإنسانية لهذا النظام ، وكيفيّة رؤيته للإنسان . فهو يرى أنّ الإنسان مجرّد أداةٍ لتحقيق التقدم الاقتصادي وزيادة رأس المال ، لذلك فلا وجود للضعفاء بين الأقوياء ، بل الأكثر من هذا ، أنّ هذا النظام يذهب إلى أنّ انعدام العدالة الاجتماعية أمر إيجابي وليس بسلبي . وملخص فكرته في ذلك هي : « إنّ انعدام العدالة الاجتماعية لها نواحٍ نافعة للنظام الاجتماعي »[٧] ويعلّلون ذلك بأنّ من الممكن جبرهُ من خلال زيادة الإنتاج ، لأنّ الفرد في الفلسفة الرأسمالية سوف يتحرّك أكثر ، لانتشال نفسه من حضيض الفقر والحرمان ، ويسعى جادّاً في كسب الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية ، إلى أن تزول فكرة الفقر والفقراء . وكمثال على ذلك نجد أنّ النظام الأميركي يتبنّى فكره (الحلم الأميركي) إذ « يتحور مفهوم السعادة في النظام الرأسمالي في الولايات المتحدة حول كلمتين ، لهما نغم خاص ورنين يداعب مشاعر معتنقي النظرية الرأسمالية ، وهما : (الحلم الأميركي) . فيدّعي منظّرو الفكرة الرأسمالية أنّ مفهوم الحلم الأميركي دليل قاطع على نجاح النظام الرأسمالي كنظام اقتصاديّ عادل ، يفسح المجال لكلّ المتشوّقين للصعود إلى قمّة السلّم الاجتماعي ، للسيطرة على منابع القوّة والثروة المنزلة الاجتماعية . فـ (إبراهام لنكولن) بدأ حياته الاجتماعية نزيل كوخٍ حقير ، في منطقة فقيرة ، ولكنّ (الحلم الأميركي) أوصله إلى قمّة البيوت في الولايات المتحدة ، وهو : (البيت

الأبـيض) ، فأصـبح رئيسـاً للولايـات المتّحدة . ولولا العدالة الرأسمالية لـمّا صل لنكولن إلى البيت الأبيض »[٨] .

هكـذا نـرى أنّ فلسـفة النظـام الرأسمالي تُبنى على هـذا الأساس ؛ لـذلك أطلـق العنـان لأصحاب النفـوذ والثـروات بـالتحكم بمقاليـد السياسـة والاقتصـاد ، جعـل بقيّـة أفـراد الشـعب مجـرّد أدوات لزيـادة رأس المـال الاقتصادي ليس إلّا لذلك تبنّى فكـرة الطبقية وجعلها حافزاً وطموحاً يتسـابق عليـه أفـراد المجتمـع ، وبـأيّ وسـيلة كانت ، في ظلّ هذه الحرّيّات التـي لا تقوم على أيّ أساس موضوعي .

ج ـــ وقفـــة مـــع الحرّيّـــات الرأسمالية

لا ريـب فـي أنّ المـدقّق والمتتّبع للواقع الرأسمالي وكـلّ متنبيّاتـه ، لا بـدّ أن يجـدها مزيّفـة وعديمـة القيمـة ، تؤدّي إلـى ضـياع الإنسـان واحتقـاره ، وإخراجه عن معناه الإنساني وإلقائه في مزابـل الرذيلـة والحيوانيـة . فـلا يوجـد للإنسـان أيّ اعتبـار وقيمـة فـي هـذا النظـام وإن خـدَع العـالمَ مـن خـلال أبواقـه ومروّجيـه بأنّـه أبـو الإنسـانية والحرّيّـة ، وهـو الـذي يريـد للإنسـان السعادة ، لهذا نجده دائماً يرفع شـعار حقـوق الإنسـان عاليـاً ويهتـف بهـذا الشعار آناء الليل وأطراف النهـار ، وهـو بعيد كلّ البعد عن ذلكز

ولنـا أن نسـأل هـذا النظـام : أيّـة حرّيّـة وأيّـة حقـوق إنسـان هـذه التـي تتشـدّق بهـا ؟ ! أهـي تبنّيـك للنظـام الطبقـي ؟ ! أم احتقـارك للفقـراء ؟ ! أم لتمييـزك العنصـري ؟ ! أم لسياسـتك الاقتصادية القائمة على الربا والاحتكار الاستغلال ؟ !

ولا بأس أن نقف على كـلّ واحـدة من هذه الركائز التي قـام عليهـا ؛ لـرى حقيقتها في الواقـع ومـا تمخّـض عنهـا من مآسٍ آلام وظلم في حقّ الإنسان :

أوّلاً : الحرّيّة السياسية

هذه الحرّيّة المزيّفة التي لا وجـود لها في الواقع إلّا أنّهـا (كسـراب بقيعـة يحسبه الظّمآن مـاءً حتّـى إذا جـاءه لـم

يجده شيئاً)[٩] .

فنرى أنّ الفوز بمقعد في البرلمان ـ فضلاً عن رئاسة الجمهورية ـ لا يمك أن يتحقّق إلّا من خلال إنفاق مئات الآلاف من الدولارات، مع دعم كبير من قِبل أصحاب الشركات والمنتفعين، بل إنّ أصحاب رؤوس الأموال رتّبوا هذا الوضع السياسي بما يتلاءم مع مصالحهم، بحيث لا يمكن لأيّ شخص أن يحقّق مقصداً سياسياً إلّا من خلال طريقهم، أو يكون عضواً منهم. « ففي أميركا نفسها نجد الفئة الرأسمالية التي تشكل أقليّة ضئيلة جدّاً من حيث عدد السكان في كلّ البلاد تحكم أكثريّة البلد الساحقة بأبشع صورة منذ عشرات السنين، وقد كبّلتها بقوانين خاصّة ومؤسسات معقّدة جدّاً، ممّا جعل إمكانيّة إقامة حكم الشعب الحقيقي في أميركا أمراً مستحيلاً في الحسابات العادية... فقبل أن يتحقّق استقلال أميركا خطّط الرأسماليون لكي يبقوا هم الحكام دائماً، وقد حكموا بالفعل وما يزالون حتّى الآن. وينبغي القول بأنّهم خططوا بشكل صحيح، فمثلاً رتّبوا الأمور باسم الانتخابات، وباسم حكم الشعب، بما لا يجعل كلّ شيء في أيدي الشعب، فأبناء الشعب يتوجّهون نحو صناديق الاقتراع ويدلون بأصواتهم أيضاً... فينتخبون رئيس الجمهورية، وينتخبون ممثّليهم في مجلس النّواب، ثم يتمّ تعيين الوزراء من بين هؤلاء الذين انتخبهم الشعب، وتتمّ الانتخابات على كلّ حال، فالحقيقة إذن أنّ الشعب ليس هو الذي يقرّر مصيره. وكلّ ما ينبغي قوله هنا، أنّ لو كات هذه الانتخابات حقيقية، وحدّد الناسُ مصلحتهم حقّاً بطبيعتهم وبدون خداع أو تشويه أو دعايات مضلّلة، وتوجّهوا نحو صايق الاقتراع طوعاً، فسوف تصلح هذه الأصوات وهذا الاقتراع كلّ شيء. لو كان الشعب صالحاً فسوف تأتي حكومة صالحة، ولو كان فاسداً فالحكومة فاسدة...

ففي أميركا تدور الانتخابات وفقاً

لرغبات الرأسماليين الأثرياء ، وأولئك هم الذين يرسلون النوّاب إلى مجلس النوّاب والشيوخ ، وقد يحصل أن نجد بين ستّ مائة نائبٍ ٥% منهم قد انتخبهم الشعب سبب شهرتهم وكفاءاتهم ، ولكنّ الأكثريّة ليسوا كذلك . فالأكثريّة الساحقة منهم يأتي بهم المال[١٠] . . . وكما ينقل الشيخ الرفسنجاني من كتاب (من الذي يدير الكونغرس الأميركي) : « أن الوضع هناك مرزٍ إلى أبعد الحدود ، حيث تبلغ مصروفات الانتخابات ملايين الدولارات للمرشّح الواحد . فقد قال آيزنهاور يوماً : إنّ هذا الوضع السائد في أميركا يحرم كلّ الكفوئين الذين لا يملكون المال من المشاركة في اتّخاذ القرارات بشأن البلاد . وبعد ذلك بعدة سنين حذّر كندي من خطر ذلك . . . حيث قال : إنّ هذا الوضع السائد في بلادنا لا يدع بعد الآن أحداً يشقّ طريقه نحو الكونغرس الأمريكي إلّا إذا كان مليونيراً ، أو يحضى بدعم أصحاب الملايين ، ويجعل بقيّة أبناء الشعب يائسين من دخول هذا الميدان[١١] . إنّ هذا تصريح لا إبهام فيه من قِبل زعيم نزعماء هذا النظام . وبعد ذلك فهل لهذه الحرّيّة مكا في الواقع ؟ وهل يجدر بالأمم الفقيرة ـ أو ما يُطلق عليها (دول العالم الثالث) ـ أن تعيش في أحلام حرّيّة واهية لا حقيقة لها ؟ فكيف يستطيع أبناء الشعب أن يحقّقوا رغباتهم ويعلنوا آراءهم ويحدّدوا مصيرهم في ظلّ هكذا نظام ديكتاتوري ، ليس على مستوى الهيمنة الفردية فحسب بل على مستوى هيمنة مجموعة من اللصوص وأصحاب الأموال ـ الذين جمعوها بطرق خسيسة يندى لها جبين الإنسانية ـ على مقاليد الحكم في البلاد ؟ وهل يبقى لهذه الحرّيّة بعد ذلك أيّ اعتبار في ظلّ حكم الأكثرية في الأقليّة ، ومن يضمن لها مصالحها ومسائلها التي تحدّد وضعها ومستقبلها ؟

وكمثال لتحكم أصحاب رؤوس الأموال في القرارات الصادرة من السلطة العليا والاستفادة منها لصالحها ـ غير مراعية لمصالح الشعب وحقوقه

القضاء والتام على الدالة الاجتماعية في هذا الوسط الموبوء بالمصالح الفردية والنزعة الأنانية والعقلية المادّية ــ قضيةُ الحليب وأسعار مشتقّات الألبان في أمريكا :

فقد قالت نقابة الألبان : إنها بحاجة إلى مساعدة ، وينبغي أن ترفع أسعار الألبان . وقدّمت النقابة اقتراحاً بهذا الشأن ، وكان وزير الزراعة الأميركي يعارض هذا الارتفاع بشدة ، وكانت حجّته أنّ نحو سُبع نفقات المواد الغذائية في أمريكا ينفق على الألبان ، ولو أنّنا رفعنا أسعار الألبان بنسبة عشرة في المائة ، فسوف يؤدّي إلى حدوث تضخم في أمريكا لا يمكن معالجته ، فضلاً عن أنّ الألبان مربحة في أمريكا . وقد ألقى الوزير خطبة حماسية عارض فيها رفع أسعار الحليب .

وتعدّ نقابة الألبان م أقوى النقابات حيث تقدّم لجان شاطاتها السياسية أموالاً لمعظم النوّاب الأمركيين ، لذلك وجدوا فجأة أنّ مشروع رفع أسعار الألبان بنسبة ٦٠% قد أقرّ بتوقيع (١٦٠) عضواً من أعضاء الكونغرس ، كما تقدّم (٣٩) نائباً بشكل مستقلّ إلى مجلس الشيوخ بلائحةٍ رفع سعر الحليب[١٢] .

فهل يمكن القول بعد ذلك إنّ هؤلاء الأعضاء هم ممثلون للشعب ويريدون مصالحه ؟ فأيّ مصلحة لأبناء الشعب في رفع أسعار أهمّ المواد الغذائية ؟ ألا يُراعى الفقراء والمحتاجون وينظر هؤلاء النوّاب إلى حياتهم ويقفون بوجه رفع الأسعار ليتمكن المستهلك من شراء حليبٍ لأطفاله أو زبد يتغذّى به ؟ وهل أنّ مجموعة من المنتفعين والانتهازيين الذين لا يشبعون من الأموار والتلذّذ بكلّ أنواع الملذّات أحقّ بأن تُراعى ؟ إنّ هذا لهو العجب بعينه !

وإذا أردنا أن نغضّ الطرف قليلاً عن مسألة كونِ السلطة العليا أداة بيد أصحاب الشركات والمصالح الرأسمالية ، أليس لنا الحقّ أن ننظر إلى نفس مشروعية هذه (الديمقراطية) المزيّفة التي تخدع

الناس ، لنرى كيف تمثّل رأي الشعب أو الأمّة ، رغم أنّها مبنيّة على رأي الأكثرية ولو زاد على النصف بنسبة واحد بالمائة ؟ فبعد أن تتقلّد زمام الحكم أين يذهب رأي الأقليّة التي قد تكون ٤٩% ؟ هل أنّ القرارات المتّخذة فعلاً تمثّل رأيهم ؟ وهل يوجد لهم صوت يدافع عنهم ويطالب بحقوقهم ؟ أم يعيشون بلا رأي في ظلّ الحرّيّة المزيّفة ؟

يقول السيّد الشهيد الصدر ﷺ :

فإنّ الحرّيّة السياسية كانت تعني أنّ وضع النظام والقوانين وتمشيتها من حقّ الأكثرية ، ولنتصوّر أنّ الفئة التي تمثّل الأكثرية في الأمّة ملكت زمام الحكم والتشريع ، هل تحمل العقلية الديمقراطية الرأسمالية ، وهي عقليّة ماديّة خالصة في اتجاهها ونزعاتها وأهدافها وأهوائها ، فماذا يكون مصير الفئة الأخرى ؟ أو ماذا ترتقب للأقلية م حياة في ظلّ قوانين تشرع لحساب الأكثرية ولحفظ مصالحها ؟ ! وهل يكون من الغريب حينئذ إذا شرعت الاكثرية القوانين في ضوء مصالحها خاصّة وأهملت مصالح الأقليّة ، واتجهت إلى تحقيق رغباتها اتّجاهاً مجحفاً بحقوق الآخرين ، فمن الذي يحفظ لهذه الأقليّة كيانها الحيوي ويذبّ عن وجهها الظلم ؟[١٣] .

إنّ أساس العدالة الاجتماعية هو العدل الذي تبثق منه كلّ القيم ، فمادام العل غير موجود في أيّ نظام فإنّا لا يمك أن ننتظر من ذلك النظام تحقيق العدالة الاجتماعية . وهل يوجد كمثل هذا الانتهاك الصارخ لهذه العدالة في ظلّ هذا النظام ؟ وهل يوجد ظلم اجتماعي أوضح من هذا التحكم وهذه السيطرة لأصحاب الغلبة والنفوذ ، أو للأكثرية في مقابل الطبقات الدنيا والفئة القليلة ؟

ثانياً : الحرّيّة الاقتصادية :

ألمحنا فيما سبق إلى أنّ النظام الرأسمالي تبنّى مسألة الحرّيّة الاقتصادية من خلال نظرته إلى الإنسان ، فهو يؤمن بالمذهب الفردي

الذي يجعل الفرد هو الأصل ، ولا بدّ أن توظَّف كلّ تشريعات النظام على أساس هذا المبدأ ، لذلك أُطلقت الحرّيّات على مصراعيها ، ومن بينها الحرّيّة الاقتصادية التي تسمح لكلّ فرد أن يستخدم كلّ طاقاته وبكلّ الوسائل لتحقيق الكسب المادّي . وهذه الفكرة قائمة على فلسفة خاصّة لهذا النظام ، وهي تبنّي الحرّيّة الشكلية ورفضه للضمان الذي يعتبر تقييداً لهذه الحرّيّة .

وهذه الحرّيّة ترتبط بفكرة تنمية الإنتاج ، وترتكز على الرأي القائل : إنّ الحرّيّة الاقتصادية هي أفضل قوّة رافعة للقوى المنتجة ، وأكفأ وسيلة لتفجير كلّ الطاقات والإمكانات وتجنيدها للإنتاج العامّ ، وبالتالي لمضاعة الثرة الاجتماعية في البلاد »[١٤] . فإذا أُطلقت الحرّيّة الاقتصادية كان ذلك حافزاً على النموّ الاقتصادي ، وبالتالي تزدهر البلاد اقتصادياً ، فيتحقّق الضمان الاجتماعي من خلال العمل والنشاط والتنافس الحرّ بين الأفراد . ويعتقد هؤلاء أن مصالح الفرد الذاتية لا بدّ وأن تتحقّق من خلال مصالح المجتمع ككلّ ، بواسطة التوافق ما بينهما في حسابات المصالح المشتركة . أضف إلى ذلك أنّ الحرّيّة الاقتصادية هي تعبير أصيل عن الكرامة الإنسانية من خلال مراعاتها لدوافعه الذاتية التي تصبّ في الواقع الاجتماعي في نهاية الأمر .

أمّا أولئك الذين يعيشون في وضع مزرٍ من الحياة ، فهؤلاء لا بدّ أن يعامَلون معاملة الإذلال والاستهانة ، ومن غير اللائق ــ في المنطق الرأسمالي ــ أن تمدّ لهم يد العون والمساعدة ، لأنّ أولئك عالة على المجتمع ، فيجب أن يُنظر لهم نظرة احتقار .

لأنّها تعتقد أنّ الفقير لو كان نابهاً وعلى قدر من الذكاء والإدراك الاجتماعي ، لمّا تدهورت حلته الاقتصادية إلى مستوى الاستجداء من الناس وسؤالهم . فالفقر إذن حالة

مرضية يصعب علاجها ، فكما أنّ المجنون لا يجد دواءً علاج حالته المرضية فضلاً عن جعله عبقرياً ، كذلك الفقراء فهو عاهة يصنعها الإنسان لتغطية كسلة وتقاعسه عن العمل . ولذلك فإنّ أفضل وسيلة لمعالجة الفقر ـــ بزعم النظرية الرأسمالية ـــ هو كشف الفقراء وفضحهم أمام الناس حتى يشعروا بالذلّ والإهانة ، حتّى إذا أنّبهم وخز الضمير انتقلوا بجهدهم من الطبقة الفقيرة إلى الطبقة الوسطى عن طريق الرجوع إلى الحقل الإنتاجي الاجتماعي[١٥] .

ولكن إذا كان حال أصحاب الكسل والتقاعس عن العمل يمكن أن يصدق عليهم هذا الكلام ـ تجوّزاً ـ فما هو مصير أولئك الذين خرجوا إلى الدنيا معوّقين أو ناقصين ، أو أنّ حادثاً ما في أثناء حياتهم أقعدهم عن العمل ؟ وما حال الأرامل واليتامى الذين لا حيلة لهم ؟ وما حال المرضى الذين لا يستطيعون العمل ؟ ! هل أنّ هؤلاء كأولئك ينطبق عليهم هذا التعليل الخالي من روح الإنسانية ، والذي ينظر إلى الإنسان كدمية ووسيلة إنتاج ، بغضّ النظر عن إنسانيته وكرامته ؟ !

والواقع أن أغلب الفقراء ووالعاطلين عن العمل ، هم ضحيّة قلّة فرص العمل واستفتاء أصحاب المصانع والشركات بالتكنولوجيا الحديثة عن اليد العاملة ، فإنّ هذه الشركات والمعامل ، بعد أن كانت تستوعب الآلاف من الأيدي العاملة وتوفّر لهم الرزق الحلال وتنتشلهم من الفقر ـ لا أقلّ ـ أصبحت الآن مستغنية عن الكثير من هؤلاء العمّال ، لأنّ الآلة حلّت كلّ المشاكل وأصبحت البديل الأسرع والأدقّ ممّا يقوم به أولئك .

هذا كلّه أدّى بأصحاب هذه الشركات والمعامل أن يطردوا أولئك الكادحين إشباعاً لنهمهم ونزواتهم ، وبالتالي أصبح الكثير من العمّال لا يجدون عملاً . لذلك نجد أنّ البعض

يضطرّ إلى ارتكاب الجريمة والسرقة والاعتداء على أموال وأعراض الناس.

وأعتقد أن نظرة واحدة للمجتمعات الغربية كفيلة بإعطاء صورة واضحة لمّا يعانيه الأفراد من فوضى واستهتار ووحشيّة، إلى درجة أن كلّ دقيقة ترتكب فيها عشرات الجرائم من سطوٍ وسلبٍ واعتداءٍ على الآخرين، ممّا يجعل المجتمع ساحة قتال وصراع من أجل البقاء. وهناك احصائيات كثيرة لا نريد أن نستعرضها لوضوحها.

أمّا الفئة الأخرى من الذين تمنعهم أخلاقهم، أو لا يستطيعون أن يقوموا بهكذا أعمال، فإنّ مصيرهم لا بدّ وأن يكون التسيّب والنوم في الشوارع، كما نرى على (شاشات التلفزيونات) إلى درجة أنّ هذه المشكلة أصبحت من المشاكل المهمّة التي تدرس في البرلمانات الغربية.

أمّا الإسلام فقد شخّص المرضى وأوجد العلاج ـ كما سوف نرى إن شاء الله ـ وهذا إن دلّ على شيء فانّما يدلّ على أنّ الفلسفة التي تقوم عليها الرأسمالية ليست بصحيحة، لأنّها لا تقوم على أساس من العدل والإنصاف. فكما ذكرنا سابقاً أنّه من غير مبدأ العدل الذي هو ميزان كلّ المبادئ، لا يمكن أن نحصل على نظام يحقّق السعادة للبشرية كلها، وأنّ أيّ نظام لا يقوم على هذا المبدأ، فإنّه قطعاً ينحاز إلى فئة وإلى جماعة على حساب فئة وجماعة أخرى.

إنّ العنصر الأساس في مآسي هذه الحرّيّة أنّها انتزعت المفهوم الأخلاقي والتراحم بين أبناء شعوبها، ولم تقم لتلك القيمة العليا من القيم الإنسانية أي اعتبار.

وعلى هذا الأساس خُيِّل للاقتصاديين الرأسماليين في بادئ الأمر أنّ ضمان سعادة المجتمع ومصالحه ليس بحاجة إلى القيم الخلقية والروحية وتغذية الناس بها، لأنّ كلّ إنسان ـ حتّى من لا يعرف شيئاً من تلك القيم ـ يسير طبقاً لمصلحته الخاصّة إذا ما كفلت له

الحرّية في المجال العملي. وهذه المصلحة نفسها تواكب مصلحة المجتمع، وتتّفق معها في نتائجها، وإن كان الفرد مدفوعاً نحوها بدافع خاصّ.

وهكذا يمكن للمجتمع أن يستغني عن الخدمات التي تقدّمها القيم الخلقية والروحية، ويصل إلى مصالحه بالطريقة الرأسمالية التي توفّر لكلّ فرد حرّيّته وتمنحه القدرة على تقدير موقفه في ضوء مصالحه الخاصّة التي تلتقي في آخر الشوط مع المصالح العامّة[١٦].

وهناك فلسفة تتبنّاها الرأسمالية لتبرير هذا الرأي من خلال العنصر التنافسي والمصالح الذاتية أيضاً. فهي تقول بأنّ مصلحة الفرد تحتّم عليه أن يُحسن صنعته وأن يخفض سعرها لكي يزداد الطلب عليها، وبالتالي يزداد ربحه. ونتيجة لذلك يقوم آخر بمنافسة فيقدّم إنتاجاً أفضل م حيث الجودة النوعية وبسعر أقل لكي يزداد ربحه أيضاً، وهكذا تدور هذه العجلة حتّى يتحقّق التطوّر الصناعي مع المحافظة على الأسعار بالمستوى المعقول. وهكذا تتوافق الدوافع الذاتية مع المصالح العامّة.

ولكنّ هل هذه الفلسفة منطقية وواقعية؟ يقول شهيدنا الصدر ﷺ معلّقاً على ذلك:

وقد أصبح حديث التوافق بين المصالح العامّة والدوافع الذاتية، في ظل الحرّيّة الرأسمالية... أدعى للسخرية منه إلى القبول، بعد أن ضجّ تاريخ الرأسمالية بفجائع وكوارث يقلّ نظيرها في التاريخ، وتناقضات صارخة بين المصالح الخاصّة والمصالح العامّة، وفراغ هائل أحدثه الاستغناء عن الكيان الخلقي والروحي للمجتمع، فامتلأ بدلاً عن القيم الخلقية والروحية، بألوان من الظلم والاستهتار والطمع والجشع[١٧].

نعم إنّ هذه الحرّيّة لم توجد التوافق المزعوم وإنّما أوجدت في المجتمع الغربي نظام الطبقات، الذي أقرّته الرأسمالية كمثل صراحة تمشّياً

مـع مصـالحها الخاصّـة ، وسـوّغت الاحتكـار والتعامـل بالربـا و . . . الـخ . لـذلك نجـد أنّ أغلـب المآسـي فـي المجتمعـات الغربيـة حصـلت نتيجـة لهذه الحرّيّة المزيّفة ، ولـذلك لا نجـد أيّ لـون مـن ألـوان البـرّ والرحمـة والتعاضـد بـين أبنـاء المجتمـع ، لأنّ النزعـة المادّيـة سـيطرت علـى العقـول وعلى النفوس ، وأصبح المجتمع غابة يعـيش فيهـا الأقويـاء ويهلـك فيهـا الفقـراء ، ويسـحقون تحـت أقـدام أصحاب رؤوس الأموال .

وليـت الأمـرَ انتهـى إلـى اسـتعباد وانتهـاك أبنـاء مجتمعـاتهم المظلومـة المخدوعة ، وإنّما تعدى ذلك الجشع إلى دول أخرى ، وشعوب آمنة راضية بما عنـدها مطمئنـة فـي بلـدانها ، وإذا بهؤلاء الرأسماليين يغـزون تلـك الـبلاد وينهبـون خيراتهـا ويقتلـون أبناءهـا وينتهكون حرمتها ، لا لشيء إلّا لأجلِ المصالح المادّية وزيادة رؤوس الأمـوال عندهم على حساب الآخـرين . ولمـاذا لا يكونـون كـذلك ومنطـق المصـلحة والفوز بقصب السبق هو القـانون الـذي آمنوا به وساروا عليه ؟ وهل أنّ الشعوب الأفريقية والآسيوية وغيرها أفضل مـن شـعوبهم حتّـى لا يقومـوا باسـتغلالهم والسـيطرة علـى مقـدراتهم ونهـب خيراتهم وثرواتهم ؟ !

نعم إنّ هذه الحقيقـة هـي الماثلـة أمامنا اليوم وبعد العشرات مـن السـنين لبـروز هـذا النظـام المسـتغلّ . فهـذه أمريكـا اليـوم تريـد أن تسـيطر علـى شـعوب العـالم كلهـا ، وتنهـب خيراتهـا وتـتحكم بمسـتقبلها وتفـرض عليهـا سياستها الهمجية ، مـن أجـل الحفـاظ علـى مصـالحها . فمـن أجـل هـذه المصـالح المادّيـة لا تبـالي بسـحق شعوب بكاملها وتشريدهم قتلهم ، كمـا حـدث فـي فيتنـام والصـومال والعـراق وغيرها .

إنّ واقع هذا النظـام الرأسـمالي واقـع مليء بالفجـائع والمآسـي ، فهـل نسـتطيع أن تـردّد بعـد ذلـك كلّـه مـع الرأسـماليين : « بـإنّ الحرّيّـة الرأسـمالية جهـاز سـحري يعمـل بشـكل تلقـائي ، ودون أيّ اعتبـار

روحي وخلقي على تحويل سعي الناس في سبيل مكاسبهم الخاصّة، إلى آلة تضم المصالح العامّة والرفاه الاجتماعي »[١٨] ؟ !

ثالثاً: الحرّيّة الشخصية

لو تأمّلا حقيقة هذه الحرّيّة لوجدا أنّها حرّيّة أضرّت بالمجتمع أكثر ممّا نفعته، لأنّها أطلقت العنان وبشكل كامل لكلّ شخص في أن يفعل ما يشاء ويتصرّف كيفما يشاء، ويسلك أي سلوك ما دام لا يضرّ الآخرين. ولا أدري كيف فسّر هؤلاء الضرر الذي يكون على الآخرين ؟ ! هل يتصور منظّرو هذا النظام أنّ الضرر ينحصر في الضرر المباشر دون غيره ؟ وفي الوقت الآني دون البعيد ؟ وليت شعري هل يوجد أشد ضرراً من هذا الذي نراه في المجتمع الغربي، نتيجة لهذه الهمجية الرعاء والحيوانية بكلّ شيء ؟ حيث ـ وكنتيجة لتلك الحرّيّة ـ انتشر الفساد في المجتمع وانهارت العائلة وضاع الشباب في أحضان المومسات ودخان المخدرات، وأصبح كلّ إنسان لا يعرف من الحياة إلّا متعته الحيوانية.

ولا ريب إنّ الانهيار العائلي وتفكك المجتمع بشكل رهيب، أجبر هذا النظام على النظر مرّة أخرى إلى أسسه وفلسفته المنحرفة، ولكنّه لم يجد محيصاً من إقرار ذلك الواقع، لكي لا تتأثّر مصالحه الاقتصادية المتوقّفة على تلك الخسارة الاجتماعية الكبرى. وسوف نعقد فصلاً كاملاً للنظر إلى هذه المآسي التي خلّفتها هذه الحرّيّة في ظلّ النظام الرأسمالي وانعدام العدالة الاجتماعية بشكل الاضح.

الهوامش:

[١] انظر: فلسفتنا: الصدر: ص ١٤.
[٢] انظر: المصدر السابق: ص ١٥. المدرسة الإسلامية: الصدر: ص ٤٢.
[٣] المصدرين السابقين: ص ١٦: ص ٤٤.
[٤] المصدرين السابقين: ص ١٦.
[٥] العدالة الاجتماعية ضوابط توزيع الثورة في الإسلام: الدكتور زهير الأعرجي: ص ٩٩.
[٦] المصدر السابق: ص ٩٢.
[٧] المصدر السابق: ص ١٢٣.
[٨] المصدر السابق: ص ٨٥.
[٩] النور: آية ٣٩.
[١٠] العدالة الاجتماعية في الإسلام « التمييز العنصري »: ص ٢١٠.

[١١] المصدر السابق : ص ٢١١ .
[١٢] المصدر السابق : ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .
[١٣] فلسفتنا : الصدر : ص ٢١ ـ ٢٢ .
[١٤] اقتصادنا : الصدر : ص ٢٧١ .
[١٥] العدالة الاجتماعية وضوابط توزيع الثورة في الإسلام : ص ١٣٧ .
[١٦] اقتصادنا : ص ٢٧٢ .
[١٧] المصدر السابق : ص ٢٧٤ .
[١٨] المصدر السابق : ص ٢٧٨ .